الطاهر بن جلّون

مكتبة ١٣٣٨

عسل ومرارة

'حكواتي عظيم'
Paris Match

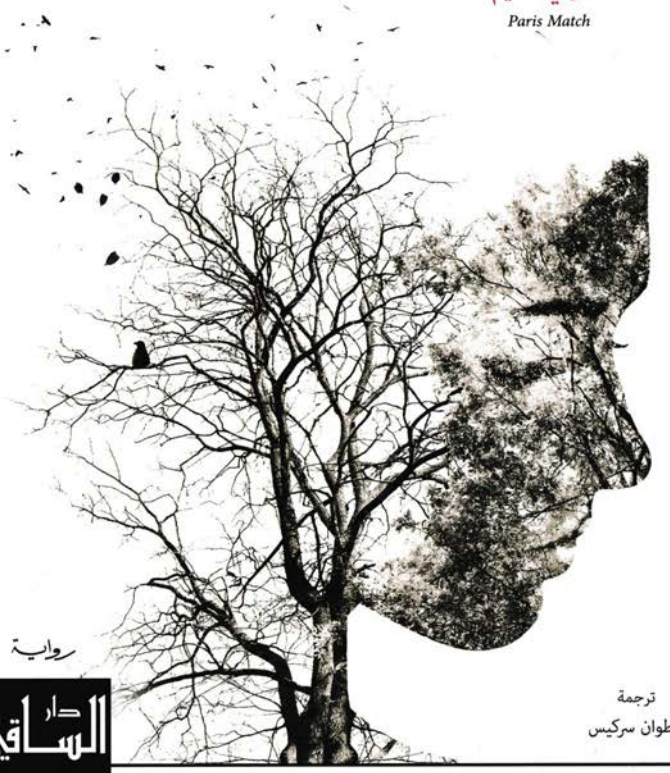

رواية

ترجمة
أنطوان سركيس

دار الساقي

إهداء لـ..

صديق مكتبة

أحمد صالح

لتكن القراءة خير سلاح

لاختيار كل ما هو صحيح وصالح

عسل ومرارة

مكتبة | ١٣٣٨

٢٠٢٣٩٧ مكتبة
t.me/soramnqraa

Tahar Ben Jelloun, *Le miel et l'amertume*, 2021
© Éditions Gallimard, Paris, 2021

Cet ouvrage a bénéficié des Programmes d'aide à la publication de l'Institut français.

Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges SCHEHADE, bénéficie du soutien du Ministère de l'Europe et des Affaires Etrangères et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France.

الطبعة العربية
© دار الساقي 2022
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2022

ISBN 978-614-03-2194-6

Published 2022 by Saqi Books

Saqi Books
26 Westbourne Grove, London W2 5RH, United Kingdom
Tel: +44 (0) 20 7221 9347; Fax: +44 (0) 20 7229 7492

www.daralsaqi.com
www.saqibooks.com

تابعونا على

@SaqiBooks @DarAlSaqi
@SaqiBooks دار الساقي
Saqi Books DarAlSaqi
@saqibooks @daralsaqi

الطاهر بن جلّون

مكتبة ١٣٣٨

عسل ومرارة

ترجمة

أنطوان سركيس

دار الساقي

إلى أخي عبد العزيز الذي أحب الحياة كثيراً لكن الحياة
لم تبادله الحب بما يكفي.

١

مراد

مكتبة
t.me/soramnqraa

أعيش في قبو منخفض جداً إلى درجة أنه يلتبس عليّ أحياناً فأحسبه قبراً. جوّه بارد، وهذا ما يناسبني في الصيف، لكنه يزعجني في الشتاء خصوصاً أنه فصل شديد الرطوبة في طنجة. فوق القبو، بنينا منزلاً في المدة التي كانت فيها أمورنا على ما يرام، وحين كان لنا، زوجتي وأنا، ملء الثقة بالمستقبل. كنا غبيَّين ولم نكن نعرف ذلك، وسعيدَين حتى من دون أن ندرك كم كنا محظوظَين.

الطبقات في الأعلى مقفلة، أو بالأحرى محظورة. صالات الاستقبال والحجرات مجهّزة بالأثاث، والستائر مسدلة، والسجاد ممدود ومثبت على الأرض، ومن وقت إلى آخر، تدخل قطط فتقضي عليه حاجتها. نعرف ذلك من الرائحة. تلك الطبقات لم تشهد استقبالات قطّ، ولم يسبق أن دعونا إليها أحداً. هكذا جرت الأمور، ولا أريد إثارة الموضوع مع زوجتي، فقد تعلمت أنّ بعض القرارات التي تجافي المنطق يجب أن تبقى خارج النقاش. إذاً، نحن نحيا،

إن جاز أن نسمي ذلك حياة، في تسعة وأربعين متراً مربعاً، من دون نافذة، فيتسلل الضوء إلينا عبر الباب أو كوّة المطبخ.

انتقلنا إلى السكن هنا بضعة أشهر قبل الفاجعة. وعقاباً لنا ندفن أنفسنا من الآن فصاعداً في هذا القبو الذي غالباً ما أُطلق عليه اسم "الكهف".

فراشي ليس شديد السماكة، وأنا مكتفٍ به. حتى أنني اعتدته. فأنا قصير القامة وعلى شيء من النحول. فراش زوجتي يبدو مريحاً أكثر. كل واحد منا في ركنه. خمسة أمتار تفصل بيننا. ويرتفع عددها أحياناً إلى آلاف الأمتار.

المطبخ والحمام في الجانب الآخر. بقية المساحة نطلق عليها اسم "صالة التلفزيون" حيث يتربع جهازا تلفزيون. لكل منا جهازه بسبب تباين أذواقنا. نضع خوذة الاستماع ونشاهد برامج مختلفة. زوجتي تحب المسلسلات التركية والبرازيلية المدبلجة إلى اللهجة العربية المحكية. وأنا أشاهد الأفلام الكلاسيكية وبعض برامج الحوارات السياسية. أحياناً تغفو وتسقط الخوذة. فأنهض وأطفئ التلفزيون. وفي اليوم التالي، تؤنبني لأنني فوّت عليها مشاهدة نهاية الحلقة.

منذ تقاعدي وأنا أحاول مداراة الموت. وأتساءل كثيراً عن السبب الذي يدفعني إلى المقاومة، فأفراحي نادرة جداً، وذكرياتي منهكة وأبذل جهداً في تجنّب استحضارها والاحتماء بها. أتعلّم أن أحذرها.

أنا ما أنا قادر عليه، وهو ليس بالشيء الكثير. حاولت إطباق الجرح، لا لأمحوه، بل لأدفعه عني، عنا، على الأقل.

أحدّق أحياناً بنقطة في هذا القبو، فيزوغ بصري وتتشوّش رؤيتي. ما يحيط بي يعذبني ويؤلمني. هذا المكان أكبر من أن يكون قبراً. لقد شاهدت منذ أيام ما استحال إليه جسد صديق طفولتي حين وضع في القبر. كان وزنه دون الأربعين كيلوغراماً. مُدّد على جنبه الأيمن، كما لو كان نائماً. الكفن الناصع البياض كان ملطخاً بترابٍ بنيّ. شيء ضئيل مكسوّ بالأبيض وبالتراب. في المساء، وجدت صعوبة في النوم.

نحن مدفونان تحت هذا المنزل، مع أنه يوحي للناظر إليه من الخارج بأنه تعبير عن نجاح جميل. المنزل يسحقنا. المنزل يزدرينا. المنزل يقتلنا ببطء. كان مسرح سعادتنا الوجيزة وشقائنا المستمر. تتحدث عنه زوجتي كأنه عجوز شريرة تتربص بنا، فتقول: "لن يلبث هذا الكوخ أن يقضي علينا، سينقض علينا بضراوة. إن الشيطان يسكنه..."

ذات يوم عثرنا على قطعة قرميد في الحديقة الصغيرة، فصاحت زوجتي: "المنزل يخاطبنا ليبلغنا رسائل. ما الذي يريده منا بعد؟"

وجدت صعوبة في طمأنتها: "لا، الجيران ينفذون بعض الأشغال ولا بدّ أن تكون بعض قطع القرميد قد سقطت منهم".

مع حلول الليل، يستريح المنزل. يتوقف اهتزاز الجدران، وتستقرّ حركة السقف. لكنه يهيمن علينا كهيمنة الروح. علقت زوجتي في الغرف جميعها أحجبة لحسن الطالع. تسكب في الزوايا حليب البقر

الطازج وتحرق بخوراً من جنوب البلاد. كلّ ذلك اتقاء للعين الشريرة والبؤس.

كان يجدر بنا مغادرة هذا المنزل، وعرضه للبيع والإقامة في شقة عملية أكثر، وسط المدينة. لكن شيئاً ما منعني، وبخاصة زوجتي. بالنسبة إليّ، إنّ مجرد التفكير في الانتقال يتعبني. حتى أن أحد أبناء عمومتي لاقى حتفه غداة انتقال ثقيل ومرهق. أعلم أن الأشياء والأغراض شريرة.

أحاول الخروج كل صباح. ألتقي في مقهى إيبيريا زملاء العمل القدامى. ليسوا أصدقاء، فلنقل إنهم مجرد معارف يجمعني بهم سرّ، ممارسة شائنة. نتناول القهوة بالقشدة بأكواب، ونتحدث عن يوميات البلاد ونراقب المارة. يقال أن المغرب تبدل وأننا لن نتمكن من اللحاق به. أعداد النساء والفتيات المحجبات، مثلاً، في ازدياد مضطرد. "يقال أنها الموضة، قال ذات يوم ذاك الذي يسمونه روبيو، النساء جميعهنّ يتحجبن من الأمهات حتى البغايا!"

وُلدت بعد سنوات قليلة على استقلال بلادي. كان والدي يروي لي كم كانت الحياة في طنجة، المدينة الدولية، رائعة. كان يعمل في فندق "المَنزَه". قصر أسطوري اكتسب شهرة بفضل رواده الذين يقصدونه من أقطار العالم كلها. على جدران البار صور نجوم سينما وغناء، يحمل بعضها تواقيع أصحابه إهداء لوالدي: روك هدسون Rock Hudson، إليزابيث تايلور Elizabeth Taylor، فيكتور ماتور Victor Mature، لوي جوردان Louis Jourdan، ليو فيرّيه Léo Ferré،

شارل أزنافور Charles Aznavour، جيلبير بيكو Gilbert Bécaud...

أعتقد أن والدي كان رئيس الموظفين أو مساعداً للمدير... على أيّ حال، كانت وظيفته مهمة. وكان، معظم الأحيان، يحمل إلينا هدايا يتلقاها من الزبائن. أذكر أنني تلقيت قلم حبر أسود جميلاً، قلماً بريشة مع محبرته. وتلقت شقيقتي ذات مرة وشاحاً جميلاً جداً. كما كان يمنحنا مصروف الجيب بالعملات الأجنبية: دولار، لير إيطالي، ليرة إنكليزية. وكنت أفرح بتبديلها بالبيزيتا[1] في شارع الصياغين. لم أكن أعلم أن المال يمكن تبديله.

"المَنزَه" كان روح المدينة. عند مدخله رجلان أسودان بالزي التقليدي الأحمر ينتصبان كتمثالين. ذات يوم سألت والدي لماذا هما أسودان. "هما من أحفاد قدامى العبيد. مدير الفندق رجل إنكليزي سبق وعمل في الهند، فهو الذي فرض علينا هذا المظهر الطريف".

لم يكن يحق لنا الدخول إلى الفندق. حين كانت والدتي ترسلني في مهمة عند والدي، كنت أطلب من البوّاب أن يستدعيه لي. فكان يخرج ويطلب مني أن أسرع في ذكر الحاجة التي قصدته من أجلها.

يوم الأحد كنت أحب التنزه مع ابن عمي رشيد في جادة إسبانيا، قبالة البحر. وفي المساء، كنا نتجول في البولفار. التجول في البولفار يعني التنزه على طول بولفار باستور. كنا نسير بنوع من اللامبالاة التي يتميز بها أبناء طنجة على طول هذا الشارع حيث الفتيات بثيابهن

١ عملة رسمية في إسبانيا ومستعمراتها قبل اليورو. (الهوامش كافة من المترجم)

الأنيقة. في تلك الأثناء، لم نكن نستخدم بعد كلمة "إغواء"، لكن هدف النزهة كان اجتذاب انتباه الفتيات اللواتي كنّ يقصدن المكان للغاية نفسها.

بولفار باستور كان يضم: وكالة خطوط الطيران الفرنسية Air France، المخازن الإنكليزية Kent، عطور Madini، مكتبة الأعمدة Librairie des Colonnes، مقهى Le Claridge... ومحلات يديرها هنود يبيعون آلات تصوير وأجهزة ترانزستور.

كنت أتوقف هناك، كل مرة، للسؤال عن ثمن جهاز ترانزستور صغير ماركة Philips. حين نلت شهادة البريفيه، نجحت في إقناع والدي بأن يشتريه لي. هذا الجهاز سيلعب دوراً مهماً جداً في إعدادي الثقافي. كنت أخلد إلى النوم وأذني ملتصقة بغلافه الأحمر، فأستمع لمسرحيات من الكوميديا الفرنسية يعاد بثها على Radio France وأتابع كالمجنون لعبة "انسحبْ أو ضاعفْ" التي يقدمها مارسيل فور Marcel Fort، خصوصاً حين يتعلق الموضوع بالسينما. ذات مساء، ربحت مئة ألف فرنك قديمة. لم أكن ألعب فعليّاً لكنني كنت أسبق المتباري في الإجابة عن الأسئلة.

يا لمعجزة التكنولوجيا الصغيرة هذه! أنا الذي خلَت طفولتي من الموسيقا حفظت عن ظهر قلب أغاني جورج براسنز Georges Brassens وجان فيرّا Ferrat Jean وليو فيرّيه Léo Ferré وباربارا Barbara وجولييت غريكو Juliette Gréco، بفضل هذا الترانزستور. كنت لا أجارى في التعرف إلى مجموعة أغانيهم. غنوا جميعاً لأراغون Aragon وفيّون Villon وبودلير Baudelaire، وبفضلهم،

أحببت الفرنسية.

لا أزال أذكر اليوم تلك المرحلة التي لم نكن نملك فيها جهاز تلفزيون. كنت أستعير الكتب من المكتبة الفرنسية في شارع فاس. أقرأ نهاراً وأستمع للراديو مساء. بعد الظهر، كان الوقت اليومي المخصص للسينما. مع شقيقتي كنا نقصد "ألكازار" أو "كابيتول" لمشاهدة فيلم، مهما يكن هذا الفيلم. هاتان الصالتان كانتا تعرضان فيلماً كل يوم. ومرة جديدة أقنعت والدي بأن السينما مفيدة لثقافتي العامة.

طنجة تلك لم يعد لها وجود. هذا طبيعي. صالات السينما أقفلت. واحدة تحولت إلى مقهى، والأخرى استحالت حطاماً. الفتيات ما زلن يتجولن في البولفار لكن محجبات في معظمهن. ولم يعد أحد يستمع للترانزستور.

بعدما نلت شهادة البكالوريا، انتقلت إلى الرباط حيث تابعت دروساً في القانون والاقتصاد. ما تلى ذلك كان أقلّ بريقاً، حتى لو كنت سعيداً في بداية زواجي.

٢

مليكة

صعدت هذا الصباح إلى الطبقة الأولى، وفتحت باب الصالة الكبرى ونوافذها، هناك حيث القطط قضت حاجتها. نظِفت المكان وعملت على تهوئِتِه طوال ذلك الصباح. ولما لم أعُد قادرة، بعد مضيّ بعض الوقت، جلست أرضاً، وأسندت ظهري إلى المقعد. أغمضت عينيّ تجنباً للبكاء. يلومني زوجي غالباً على أنني أصدرت حكماً مبرماً على كل ما بُني فوق الطبقة السفلية. كنت قد جهزت هذه الصالة بعناية كبرى لزواج ابنتي. فكرت في ذلك وهي لم تكد تكمل سنيّها العشر. اخترت الأقمشة والسجاد والستائر، وعهدت بهذا العمل لأفضل منجّد في المدينة، محمد-موشيه الشهير، من أمّ يهودية ووالد مسلم. كنت أسرح في الأحلام. فأتخيل العيد حتى أنني سمعت الموسيقا المصاحبة في المناسبة. الآن، تحولت هذه الصالة مرتعاً للقطط الشاردة.

ولداي الاثنان استولت عليهما زوجتاهما. أحدهما هاجر إلى

كندا، والآخر يعمل نائب مدير في أحد المصانع، ما لا يترك له متسعاً من الوقت لزيارتي. حين تأذن له زوجته بذلك، يمرّ بي سريعاً حاملاً معه الزهور والفواكه.

نحن قوم بسيطون وشريفون ومتواضعون. فقراء، نعم. شريفون؟ في النهاية، نعم. تزوجت رجلاً رائعاً، حريصاً، أميناً، بالغ الأمانة، عفيفاً. لم يكن أحدنا يعرف الآخر قبل أن يطلبني للزواج. تصرفنا كما تصرف قبلنا آباؤنا وأجدادنا منذ زمن بعيد. كانت والدتي مقتنعة بأن في ذلك ضمانة لحياة هانئة وسعيدة. الحب لا يهبّ كما تهبّ العواصف المفاجئة. هو يُبنى كل صباح. كنت أشاطرها الرأي وألاحظ اجتياحات الحب من النظرة الأولى في المسلسلات التي كنت أتابعها بشغف.

اعتمدنا في البداية طريقة حياة شديدة البساطة. كنا مهيّئين للسعادة الزوجية، نتمناها وننتظرها. ثم تسلل الشقاء إلى حياتنا البسيطة الهادئة كأنه القدر. عين شريرة تمكنت من الدخول علينا ودمرت كل شيء. آمنت بالحياة، آمنت بالشجاعة وبالصبر. لكن كل ذلك تداعى في بضع لحظات. إنني أؤمن كوالدتي بالخرافات. كانت تذكر أن نبينا الحبيب كان يؤمن بالعين الشريرة، وينصح المؤمنين بالتعقل ونبذ الحسد. العين الحسودة، العين الغيورة، العين الشريرة... تتربص بنا، وما إن تجد ثغرة، حتى تنفذ منها إلى حميمياتنا، إلى عائلتنا وأسرارنا. أنا أعرف أن الإنسان شرير في جوهره لكنني بصفتي مسلمة صالحة كنت آمل في مساعدة الله وحمايته للعيش في سلام. الله ورسوله نسيانا... أو عاقبانا في حياتنا. السماء تصدّعت وانقضّت صاعقة

فمزقت الملاءات البيضاء لحياتنا الهانئة. الأمر كذلك. لعنة وغضب من السماء.

أذكر ذلك الزمن الذي كنا قد انتهينا فيه للتو من بناء المنزل الذي أنفقنا فيه كل مدخراتنا. كانت عائلتانا قد ساعدتانا. وكان زوجي المسكون بتأنيب الضمير الذي ورثه عن والديه يقول لي: "كل حجر من أصل اثنين يحمل علامة الفساد. سيأتي يوم ينهار فيه البيت على رؤوسنا ولن يحلّ بنا سوى ما نستحق". كنت أحاول إقناعه بأن بلادنا هي التي أدخلت الفساد في العلاقات الإنسانية. رواتب الموظفين الزهيدة تدفع بكل واحد منهم إلى تدبر أمره. حتى أنني أعتقد أنني سمعت والدي ذات يوم يذكّر بتصريح أحد الوزراء الفاعلين: إن كانت الأجور زهيدة، فليتعاون أبناء المغرب ويتمّموا مباشرة للموظفين ما لا تتمكن الدولة من منحهم إياه...

كانت الرسالة واضحة: الفساد جزء من طبائعنا.

هو كان متحجراً في مبادئه وأعترف بأنني كابدت لدفعه إلى الالتحاق بالأفواج الهائلة للذين يتدبرون أمورهم مع المبادئ.

ذلك الصباح، كنت أشعر بانقباض. وللترويح عن نفسي، فتحت غرفة سامية. لم أفعل ذلك منذ زمن بعيد. أغراضها لا تزال هنا. الغرفة لا تزال كما تركتها يوم الفاجعة. فتحت الخزانة. قلبت فساتينها الصغيرة، واخترت بينها واحداً رفعته إلى وجهي وتنشقت عميقاً رائحته. رائحة ابنتي. عطر حياتها. آثار أسرارها. تناولت قميصاً وشممته كما تُشم الزهرة. جلست على حافة السرير واستغرقت في

بكاء طويل. كان ذلك يخفف عني. زال انقباض صدري. لكن الألم استمرّ. ألم في عمق كياني.

لا أدري ما يفعله الآخرون، أما أنا، فأعلن عجزي عنه. إنني منكسرة، مبتورة، مصابة بعنف، معدمة. وعليّ الاستمرار في التظاهر، التظاهر بأنني مستمرة في الحياة، وأعالج أمراضي، وأهتم بزوجي الذي يظن أنه مريض، والتفكير في أولادي، وتخيل المستقبل الذي سيكون مليئاً بالثقوب. مادت الأرض تحت قدميّ، وهوّة جذبتني إلى القعر. أعترف بأنني استسلمت بسهولة للقوة التي كانت تستولي عليّ. ظننت أنني بانقيادي إليه أضع حدّاً لآلامي.

في لحظات الصفاء الكليّ، كنت أتساءل كيف أننا، كزوجين تعاهدا العبور إلى الشيخوخة بهدوء، تحوّلنا إلى مثل هذه الفظاعة، وإلى هذا الكمّ من الحقد والعدائية! لم يكن ذلك يشبهنا. الآن، احتلّ جحيمنا موقعه، وباتت له علاماته المميزة، وتماشى مع طبائعنا التي صارت تزداد سوءاً باستمرار، وتكيّف مع هوسنا وضعفنا وكذلك مع إرادتنا المرَضية في التلفظ بالسوء والتسبب فيه. ولا أرى كيفية العمل خلاف ذلك، وكيفية تلطيف الموقف، وكيفية العودة مجدداً إلى حياتنا الطبيعية، شخصين متحابَّين، متصادقَين، سخيَّين... خصوصاً سعيدَين بحياتهما.

٣

مراد

أنا ميت. ميت جوعاً. لم تعد زوجتي تطعمني. هي لم تتخلَّ عني، لكنها نسيت أن تعدّ لي ما آكله. هي لم تنسَ. لقد قررت أن تتركني أموت جوعاً. هي هنا. هنا بكل رهبتها. لا تتركني. تزعم أنها ساهرة لتلبية أدنى متطلباتي. تقول أشياء كثيرة تفتقر إلى أيّ أساس. تتحدث بمفردها وعليّ متابعة هذيانها وإلا عاقبتني. لا تفتح الثلاجة خشية أن تغويها نفسها فتستهلك ما يأتينا به ابننا. تحتفظ بالطعام لأنها بخيلة. لطالما كانت بخيلة. ومع التقدم في العمر اكتسبت هذه الرذيلة شراسةً. تتناول الطعام في الخفاء. تقيم حساباً لكلّ شيء. تقول إنها تعيش معي معاناة، وإنها كانت تستحق أن يكون لها زوج ثريّ وسخيّ. أنا سخيّ لكنني لست ثرياً. أُعطي ما لديّ ولا ألقي بالاً للإنفاق. وهو ما تلومني عليه لاحقاً.

لم تعد لديّ قدرة على النهوض ولا الاعتراض. وحدهما عيناي تنطقان. هي لا تنظر إليّ. تمرّ بجانبي من دون أن تراني. لا يزعجني

ذلك. بل على العكس، أشعر بالارتياح حين لا تراني. أستريح لأن نظرتها تحمل أثقالاً من اللوم والاشارات الضمنية.

أمس ضربتني. سدّدت إليّ لكمة في المعدة. لم أكن أتوقع ذلك. ومع ذلك، تجرأتْ. كانت في حالة من الغيظ. وحين تفقد أعصابها، لا تعود تعي ما تفعل. ترمي بأغراض غير قابلة للكسر... كتاب، وسادة، لكنها لا ترمي الصحون. وحده بخلها يمكنه وضع حدّ لغضبها.

ضربتني لأن كوب الحليب سقط من يدي. ضربتني لأن كوب الحليب أكثر أهمية من حالتي.

بقيت واهن القوى وطفرت الدموع من عينيّ من دون أن أتمكن من لجمها. كنت أبكي بصمت. ولحسن الحظ، لم يكن أيّ من أولادنا موجوداً. أسوأ أشكال الإذلال أن يبكي المرء أمام أولاده. هي تعلم ذلك. حين يأتون لزيارتنا، تبدأ الشكوى. وتحرص على أن تعدّ نفسها أشدّ مرضاً مني. تبدأ الحطّ من قدري. تقول: "والدكم مريض، لكنه يبالغ؛ يدّعي المرض لكي نشفق عليه. أنا مريضة جداً ولا أحد يقلق لصحتي. لا أستطيع النوم. هو ينام ويغطّ في نومه كالثور. لم أعد أستطيع الاحتمال".

هل عليّ تأكيد أنها لا تعاني أيّ مشكلة مع النوم، وأنها تغرق في نومها ما إن تلقي رأسها على الوسادة وأنا أمضي الليل أراقب نومها العميق؟ لن أدخل في منافسة معها حول حالة مرضي. لكلّ نصيبه من المشكلات.

أشعر بالجوع. شخّص الطبيب مشكلة فقر دم لديّ. أفتقد القوة

والطاقة. يزداد جسدي نحولاً.

في السابق، حين كانت فاطمة، خادمة التنظيف، تأتي لمساعدتنا، كانت تعدّ لي في السر ما أتناوله، وتستغل اللحظات التي تغيب فيها زوجتي لتطعمني. كنت آكل جيداً وأشعر بأنني في حال أفضل. لكنها طردتها. كانت تكلف غالياً. لم تكن لدينا القدرة على دفع تكاليف خادمة تنظيف وإطعامها فوق ذلك. على أيّ حال... هي لم تكن تتقاضى بدلاً جيداً، لكنها رضيت بمساعدتنا وفاء للأيام الماضية التي كان كل شيء فيها يجري على أفضل حال.

أفتقد فاطمة. هي تعلم ذلك. حتى أنها كانت ترتاب بانجذابي إليها. لم أعد أعرف الانتصاب منذ زمن بعيد، لكنني أحب النظر إلى النساء. أجد لديهن دوماً شيئاً ممتعاً مفرحاً. زوجتي تعلم ذلك وتنهرني كلما ضبطتني أنظر إلى امرأة مهما يكن عمرها. كان لفاطمة نهدان جميلان. لطالما أحببت نهود النساء. على أيّ حال، بفضل نهديها الضخمين والصلبين، وقعت في غرام مليكة. الشبان والفتيات لم يكونوا يجتمعون معاً قبل الزواج. كانوا يتزوجون ثم يجتمعون. فعلت ما يفعله الجميع. والدتي قصدت والديها لطلب يدها. وكانت قد سبقتها سيدة مختصة بالتمهيد لهذه المراسم الخاصة بالزواج فوضعت أمام باب منزلهم باقة كبيرة من الزهور. وتسارعت الأمور. مليكة كانت في الثانية والعشرين وهي سن متأخرة للزواج، وكنت أكبرها بعامين.

عليّ التوقف عن استرجاع الذكريات. فقد وصلت مغضبة وصاحت: "أين وضعت جهازي للتحكم من بعد؟"

لم أخبئ شيئاً إطلاقاً. لم أجب. فاستمرت بالصياح بصوت أعلى.

– لا أدري أين هو جهاز التحكم من بعد.

– أنت تتعمد ذلك لإغاظتي، تفعل كل شيء لإخراجي عن طوري، من أجل أن أفوّت مسلسلي. أنت مريض، فاسد، منحرف...

لم أقل شيئاً. أغمضت عينيّ وسرحت في أفكاري. تصل إليّ صيحاتها لكن أقلّ حدّة. توصلت إلى إقامة جدار من الإسمنت والحديد بين صراخها وبيني. لَزِمني كثير من الوقت حتى توصلت إلى ذلك، فهذا بالنسبة إليّ أشبه بسدّ يحميني منها.

لاحظت أنها لم تعد تناديني باسمي منذ بعض الوقت. لم تعد تسمّيني. تقول: "أنت". مرة ذكرت اسم عائلتي، فأضحكني ذلك. من الغريب أن تسمع زوجتك تناديك باسم عائلتك، كما لو كنت غريباً.

أصبحت، في الواقع، غريباً. لا أتعرف إلى شيء. أنا في منزلي ولا أشعر بأنني في منزلي. أعلم أنه منزلنا، بيتنا، لكن الجدران وقطع السجاد لا تعني لي شيئاً. لا أفقد ذاكرتي، لكن لنقل إنّ ذاكرتي انزاحت. لست في موقعي. أطرح على نفسي أسئلة. لا تعرف عنها شيئاً. على أيّ حال هي لن تفهم المشكلة. تنعتني بالجنون. سبق وحدث ذلك. ذات مرة تجرأتُ، من باب الدعابة، على القول إن القبو الذي نسكنه كان مدفننا العائلي. كنت أقصد القول إنّ ما من حياة سيشهدها هذا البيت بعدنا. نهضتْ، ووضعت سبابتها على

صدغها، وحرّكتها بحركة دائرية وقالت لي: "أنت مجنون، كنت أعرف ذلك، أنا أعيش مع مجنون، هذا ذروة ما جرى لي!"

إنني غريب عن جسدي. استيقظت ذات يوم وأنا أتساءل لمن هذا الجسد الذي أحمله. كنت مقتنعاً بأنني أحمل جسد شخص آخر. لحسن الحظ أنني لم أقل ذلك لزوجتي، وإلا لكانت قد اتصلت بمأوى المجانين.

نظرت طويلاً في المرآة. الوجه يذكّرني بأحد ما مألوف. لكن يكسوه الكثير من التجاعيد وخصوصاً انطباع انهزام مرتسم على البشرة. غضّنت جبيني، وفتحت عينيّ على وسعهما، ومرّرت يدي على وجنتيّ مرات عدة، غير أن الانطباع بأنني شخص آخر لم يزُل.

أحمل على زندي الأيسر أثراً ناتجاً عن لقاح تلقيته بالطريقة الخطأ. خلعت قميصي وبحثت عنه. لم أجد له أثراً. عند ذاك جلست على حافة المغطس وقررت أن أتقدم أمام مليكة عارياً. ووفق ردّ فعلها أحدّد الموقف من نفسي.

خلعت ثيابي محتفظاً بسروالي الداخلي بدافع من الاحتشام. كان صراخها قوياً إلى درجة أن الجيران بدؤوا القرع على الجدار الفاصل بيننا.

– كنت أعلم أن أمورك لا تجري كما يرام، أما الآن، فقد تجاوز ذلك كل الحدود. ماذا تريد؟ ماذا تحاول أن تقول لي؟ آمل أنك لا تسعى إلى استغلال مفاتني.

قهقهتْ بصوت عالٍ ثم أردفت: "صديقي المسكين! أحسنت

صنيعاً باحتفاظك بسروالك الداخلي. إذ لا شيء داخله. منذ سنوات بعيدة وهو فارغ، ولا حتى النزر الضئيل من بقايا رجل فيك. هيا! اذهب وارتدِ ثيابك ولا تعد مجدداً إلى مثل هذه المزحة".

هي على حق. قضيبي مات منذ زمن بعيد، وبات لا ينفع إلا للتبول، ولا بأس بذلك. قضيبي أكلتْه، وابتلعتْه بعدما سحقتْه كثمرة ناضجة. كلماتها الخبيثة أصابتني في الصميم، فهي تحسن اختيارها.

زوجتي قبيحة. مع أنها كانت جميلة. الزمن والتجارب قبّحتها. ليست قبيحة جسدياً. نهداها لا يزالان على تماسكهما، وردفاها لا يزالان محافظين على صلابتهما. لكن وجهها هو الكارثة. فعليه ترتسم روحها بكل وضوح. لم أعد أذكر من الذي قال: "ابتداء من سن الأربعين، نصير المسؤولين عن وجوهنا"، لكنه على حق. وكان ليو فيرّيه يغني: "حين يكون فاتناً يكون كفيلاً بنفسه...". كان يتحدث عن الفم.

يصعب القول إنني كنت مجنوناً بغرام هذه المرأة! الزواج بفتاة لا تعرف عنها شيئاً كان أمراً مثيراً ويتضمن مجازفة بالطبع. كنت قد قلت لأمي إن في إمكانها أن تختار لي، فهي تعرفني معرفة جيدة. أمر واحد كان يقلقني: هل يتسنى لها الوقت لاكتشاف العيوب في الفتاة التي ترشحها للزواج؟ ألقت عليّ الدرس: "يا بنيّ، الكمال ليس من هذا العالم. الله وحده هو الكامل. لدينا حسنات وسيئات، أمور حسنة وأخرى رديئة، وألوان تتدرّج من النور إلى العتمة... هذه المرأة ستكون ما تصنعه منها، الأمر بكليته متعلق بك وبإرادتك

ورغباتك. حين تزوجت والدك، لم أكن قادرة على تخيّل مدى طيبته. لم يرفع يده يوماً عليّ، وأنت بدورك، عدني ألّا تكون أبداً فظّاً مع زوجتك. حين تعترضك مشكلة، عليك بالكلام، نعم، بالحوار، ثم عليك أن تأخذ وقتاً لفهم ما يدور في رأس الآخر. يقال أن النساء معقدات. هذا ليس صحيحاً؛ المرأة عليك الاهتمام بها باستمرار. الأمر بسيط، في حين أن الرجال، يا إلهي كم أنتم معقدون! لا نعرف أبداً ماذا تريدون...".

تلاشت الرغبة فجأة. حدث ذلك بعد وقت قصير على بداية تلقّيَ المغلفات. كانت تشكو ذات مساء من أنها لا تكتفي إلا نادراً جداً في السرير. وكانت تقول: "في إمكاني، على أصابع اليد الواحدة، احتساب عدد المرات التي كنت فيها رجلاً، رجلاً حقاً، لا هيكلاً شاحباً ضعيف البنية كما أنت عليه الآن".

هيكل شاحب ضعيف البنية! شيء حقير من دون محتوى. غرض مسترخٍ. عضو مترهل ومن دون تماسك. جسم رخو ولزج. هذه صورتي في نظرها. يا لي من مسكين!

لم أجب. أحسست بعضوي يتقلص حتى الاختفاء. كانت هنا، واقفة مباعدة ساقيها، وتسند خصرها بيديها، وشعرها منكوش ولعاب على أطراف شفتيها. منذ تلك اللحظة بالذات، بدأت بناء هذا الجدار الفاصل بيننا.

٤

مليكة

رغم كل شيء، لا أتخيل نفسي في الحياة من دون زوجي. رغبت في أن أكون صديقته، لكن لم يكن لديه أيّ حسّ بالصداقة. الحب؟ آه! حكاية قديمة لا أدري كم استمرت. عاماً واحداً؟ عامين؟ لم أعد أذكر. توقف فجأة. ذات مساء، عاد إلى البيت من العمل، وارتدى بيجامته ثم انتقل إلى النوم على فراش في صالة الاستقبال. ظننت أنه مريض وأنه لا يريد أن يزعجني أثناء نومي. حينذاك كنت أنام نوماً عميقاً وسريعاً. بالنسبة إليه، كان الأمر أكثر تعقيداً. يبدأ القراءة، ثم يستمع للموسيقا، ويطفئ المصباح وينتظر قدوم النوم، وقد يمضي الليل أحياناً من دون أن يغمض له جفن. "على مدى ساعات"، قال لي، "أنتظر قطاراً لا يأتي أو تاه عن محطته". حكاية القطار هذه أثارت أعصابي. فالقطارات عندنا نادراً ما تصل في موعدها، فلماذا لا يستقلّ حافلة، فالحافلات متوافرة ومكيّفة، وفيها جهاز تلفزيون يعرض مسلسلات تركية أو برازيلية مدبلجة باللهجة العربية المحكية،

ويقدم فيها المشروب الطازج وحتى أكياس رقائق البطاطا الصغيرة. لكنه، بسبب عناده، ينتظر قطاراً. بعضهم ينتظرون الحب الكبير، وهو يكتفي بانتظار قطار! قلت له مرات عدة إن منزلنا مبنيّ على أرض محطة حُوّلت إلى غير غرضها. لم يكن يريد معرفة شيء عن الموضوع. أمر غريب!

الآن صرت أنام وحيدة. في البداية كان ذلك يناسبني، حتى أنني وجدت فيه نوعاً من الطمأنينة، ولكن مع الأيام صار ذلك يلقي بثقله خصوصاً أنه لم يعد مفهوماً. أردت أن أناقش معه هذا الموقف المستجد، فوضع الخوذة على أذنيه وأغمض عينيه. كانت الأمور واضحة.

لم يدرِ الأولاد شيئاً عن الأمر.

هذا الرجل، هذا الزوج... مع العلم أنني انتظرته طويلاً. وُلدتُ نهاية الخمسينيات. وكانت طنجة المدينة الدولية التي كان والدي يحدثني عنها في طور التحول. لم تعد المدينة تدير ظهرها لسائر المغرب. لكن كان هناك أيضاً مصرفيون ورجال أعمال على هامش الشرعية، ورجال عصابات، ويظهر أيضاً جواسيس. الطابع الخاص لـ"المدينة الدولية" لم يختفِ فجأة.

كان والدي يصطحبني للاستماع لمغنّي جاز يقدمون حفلاتهم في الكازينو الإسباني. لم يكن يدفع المال لقاطع التذاكر الذي كان من رفاقه، فيدخلنا ما إن يبدأ العرض. نهار الأحد كان يسمح لنا مع شقيقاتي وأشقائي بالذهاب إلى سينما "روكسي" حيث تُعرض الأفلام الأميركية من إنتاج MGM بالنسخة الأصلية. كنا نتحدث

لغات عدة، وعلى الأقل نرتكب مجازر بحقها إنما بمرح. كان لنا جيران فرنسيون وإسبان وإيطاليون، وبعضهم كانوا يهوداً، والآخرون كاثوليكاً. فتحت عينيّ على عالم غنيّ بالتنوّع. كانت لدى والدي تجارة صغيرة في المدينة، مباشرة قبالة الكنيسة التي يرتادها الإسبان خصوصاً. لم يكن ينقصنا شيء، لكن والدي يدربنا على أن نكون مقتصدين. أذكر أنه كان لدينا في المنزل مصابيح ضعيفة الإضاءة، ولذلك كان الجو معتماً دوماً، ما جعلني معتادة هذا النوع من الإضاءة الخافتة. كان يحظر علينا ترك حنفية الماء مفتوحة أثناء اغتسالنا. وحدها وجبة منتصف النهار مهمة. قليل من اللحم، وكثير من الخضار والحمضيات خصوصاً. يوم الجمعة كان يحق لنا تناول لحم الدجاج. كانت والدتي تقطّع الدجاجة إلى قطع أربع وتطبخها على دفعتين مع كثير من الخضار. وحين يكون لدينا مدعوون (نادراً جداً)، لم تكن والدتي، بنصيحة من والدي، تنضج اللحم جيداً. فأتساءل دوماً لماذا يكون اللحم قاسياً كأنه غير صالح للأكل تقريباً. كانت والدتي تسترجعه لتطبخ به الطاجن على مدى أسبوع بكامله. كان يجب التفكير في الأمر. لم يكن والدي يحب الناس الذين ينفقون من دون حساب. فيقول: "هؤلاء يتصرفون من دون وعي". وكنت أوافقه الرأي. أنا بدوري كنت أشعر برعب من التبذير. بصحبة والدتي، كنت أشتري قماشاً رخيص الثمن وأخيط منه فساتيني بنفسي.

كنت أجد هذه الطريقة في الحياة مُرضية. لم أدرِ هل كان والدي اقتصادياً بالضرورة أم بخيلاً بالإرادة. الأمر سيّان على أيّ حال. كان

يقول لنا غالباً: "Una peseta es una peseta" [البيزيتا هي البيزيتا]، فتتملكني رغبة بإجابته: "بالطبع!"

كنا ثلاث شقيقات وشقيقين. وكان يسود البيت جوّ من السلام يغلفنا بضجر حلو إلى حدّ ما. كان المبدأ أن نرفض الدعوات التي توجهها العائلة أو الجيران. فتلبية الدعوة لغداء أو عشاء تحتم علينا مبادلة الدعوة بمثلها، ما يفرض علينا نفقات لم يكن في استطاعة والديّ احتمالها. كنا نعيش في ما بيننا ولم نكن بحاجة إلى أحد. توصلت إلى أن أفهم أن لدى والدي آلة حساب في عينيه وكذلك في قلبه. كان قد عرف حرب الريف[1] وبعدها الحرب العالمية الثانية. أدرك معنى الجوع والعوز.

شقيقتي الكبرى، زهرة، كان من المفترض أن تتزوج أحد أبناء الأعمام الذي كانت تجتمع به سرّاً. كانا يلتقيان أيام العيد، ويتبادلان الرسائل عبر وردة، وهي عبدة سوداء جاء بها عمي من غينيا قبل الحرب. كانت تتولى دور ساعي البريد سرّاً وكان ذلك يفرحها.

كان ميسوراً إلى حدٍّ ما وينفق بسعة المال الذي ورثه من والده الذي جمع ثروة باستيراد الفوائض الأميركية مباشرة بعد الحرب في الوقت الذي كان يمارس التجارة مع أفريقيا. بالنسبة إلى والدي، لم يكن من الوارد لديه أن تتزوج زهرة بهذا "الذي

١ حرب اندلعت بين إسبانيا وقبائل جبال الريف شمالي المغرب عام ١٩٢٠ واستمرت حتى ١٩٢٧.

يتصرف من دون وعي". كان يقول: "سيتسبب في إفلاسنا". أجرت والدتي بضعة مساعٍ واقترحت على ابنتها الزواج بمدرّس يعيش حياة متواضعة. بالنسبة إلى والديّ، كان الصهر المثالي. يعيش في قلّة أو حتى فقر، فهذا يوفر على العائلة الكثير من النفقات سواء على حفل الزواج أو ما يليه. هكذا زُوجت زهرة التي كانت مغرمة بابن عمها نور الدين بعبد السلام، معلم المدرسة الذي كان راتبه لا يكاد يكفيه حتى نهاية الشهر. قاومت عبر إعلان الصيام عن الطعام، لكن سلطان والدي، مدعوماً بمساندة غير مشروطة من والدتي، أدى إلى تنازلها. وحين تتطرق إلى مشاعر الحب تجاه نور الدين، كانت والدتي تشتعل غضباً: "الحب؟ هل تظنين نفسك في فيلم أميركي؟ هل تظنين أنني كنت أحب والدك قبل الزواج به؟ الحب عندنا يأتي لاحقاً، وليس قبلُ إطلاقاً. عندنا الحب يبنى على العقل والعادة. سترين، ستنسين سريعاً نور الدين المبذّر والسوقيّ".

عاشت زهرة تعِسة طوال حياتها، لا لأن زوجها لم يكن لطيفاً، بل لأنها لم تكن تحبه، وانتهى بها الأمر إلى التمرد، وغرقت في كآبة على درجة من الخطورة. في تلك الحقبة، كان العلاج بالصدمات الكهربائية في مستشفى المجانين. تلك الجلسات حطمتها وأودت بحياتها في نهاية المطاف. عزت والدتي مرضها إلى أن عيناً شريرة أصابتها سببها عائلة ابن العم ذاك. أما والدي، فلم يتكبد أيّ عناء واكتفى بالقول: "تلك إرادة الله، فمن أكون لأعترض عليها؟"

شقيقتي الأخرى، غيتا، تزوجت برجل فقير، إسكافيّ، وارتضت بقدرها من دون اعتراض. مصير زهرة أحزنها وأرعبها. كانت تؤمن بالقدر ولا تحتجّ. كانت قليلة الكلام. وحين تُسأل عن حياتها، ترفع عينيها نحو السماء وتقول: "شكراً لله! فهذه إرادته". كانت من دون أولاد، ولم يخامرها شك للحظة أنْ يكون زوجها عاقراً. كانت مقتنعة بأن العلة فيها.

حين قال لي والدي: "ستتزوجين مراد، ابن أحد أصدقائي"، لم أعترض. كلف والدتي أن تعيد عليّ الكلام نفسه. لم أكن أعرفه، فسألت والدتي هل بإمكانها أن تؤمّن لي صورة له لأرى من يشبه. قدمت إليّ صورة هوية لشاب ببذلة وربطة عنق ويضع نظارات. وفيما أنا أتأمل هذه الصورة، حاولت أن أتخيل نفسي بين ذراعي هذا الغريب. شعرت بإثارة صغيرة في أحشائي. كان لديه شيء ما من مطربي المفضل فريد الأطرش. لم يكن يشبهه، لكن في نظراته اللطيفة ما جعلني أفكر في ذلك الفنان المصري الذي علمت لاحقاً أنه لم يكن يحب النساء كثيراً. شائعات من دون أساس أطلقها منافس حسود.

مراد، الذي كان قد درس المحاسبة، كان يدير من وقت إلى آخر، مخزن والده لبيع الألبسة القائم في موقع تجاري مهم عند مدخل سوق الصياغين. شعر بالسرور يوم أبلغه والده بقبوله في فندق "المَنزَه". فالتجارة لم تعد مزدهرة كما في السابق. كان مراد ينتظر تعيينه في وزارة التجهيز التي لديها فرع في طنجة. كان قد اشترى سيارة مستعملة، مرسيدس سوداء، يخرج بها الأحد ليقصد

مسبح "الغابة الديبلوماسية" على المحيط الأطلسي. فكرة امتلاكه سيارة كانت تقلق والدي. فيقول لوالدتي: "هذا مؤشر سيئ. السيارة تعني الحرية؛ إنها محرّك الإغراءات، فمن يدري أنه لن يبدأ تبديد أموال والده في الرحلات التي يدعو إليها رفاقه ويقدم إليهم الخمرة والبيرة؟" كانت والدتي تثني على رأيه وتخبره أن مفاتيح السيارة تحتفظ بها والدته ولا تعطيه إياها إلا حين تستعلم منه عن الغاية من الخروج بها.

مباشرة قبل حفل خطوبتنا، سمح لي والداي بالخروج في جولة إلى الجبل بصحبة والدتي. الشرف يجب أن يبقى مصاناً. من غير المطروح أن تحدث ملامسة قبل ليلة العرس. حين توقف أمام مقهى عند رأس سبارطال، اقترحت والدتي أن نبقى في السيارة ونتأمل روعة المشهد. أصرّ مراد على دعوتنا لتناول شراب ما في المقهى. رفضٌ مهذبٌ إنما صارم من والدتي. أخرجت من حقيبتها "ترموساً" وأكواباً وقدمت إلينا القهوة بالحليب التي أعدّتها قبل خروجنا، كما قدمت كعكاً محلّى من صنع المنزل. كنا نشاهد غروب الشمس في سماء ذات حمرة بديعة ونحن نشرب القهوة بصمت. كنت منزعجة لكن مراد كان يعلم أن لعائلتنا سمعة في البخل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٥

سامية

١ أكتوبر ٢٠٠٠

أنا جالسة على حافة السرير. أرتدي قميصاً طويلاً من دون أكمام كلباس نوم. الستائر مسدلة. شعرت بحاجة ملحّة إلى تناول دفتري الذي أسجل فيه يومياتي والبدء بالكتابة. أنا نحيلة وبشرتي باهتة. أنظر من وقت إلى آخر إلى نهديّ. ليسا مرعبين.

لست أدري لماذا. الكتابة، نعم، لكن ماذا أكتب؟ ليس لديّ طاولة للكتابة. أكتب مستندة إلى ركبتيّ وأنا جالسة بإحكام في السرير. اكتسبت عادة اعتماد هذه الوضعية لتسويد صفحات دفتري. إنه دفتر مدرسي بسيط. على غلافه صورة أسد. ينظر إليّ. أقطّب وجهي، فلا يتحرك. على ظهر الدفتر جداول ضرب. لا أجد علاقة بين الأسد وهذه الأرقام المرصوفة بعناية. ما همّ. أنا أمام صفحة فارغة. ليست بيضاء تماماً. فلنقل إن بياضها باهت، بياض متسخ.

إنها من الورق الذي أُعيد تدويره. أَستخدم قلم حبر، هدية من مدير صحيفة "الشِّعر". قدّمه إليّ ذات يوم لدى خروجي من الثانوية. قال لي: "أنت شاعرة. هذا يلاحظ مباشرة. تفضلي. أقدم إليك هذا القلم لكي تكتبي الشعر، ولا شيء سوى الشعر"، ومضى. أُصبت بالذهول. كيف عرف أنني أحب كتابة الشعر؟ هذا غريب. عليّ أن أملأ القلم حبراً. شعرت بتصاعد الكلمات داخلي كهبّة حارة. يجب أن أخرجها.

المنزل هادئ. والدتي نائمة. تقول إنها لا تنام جيداً بسبب شخير والدي، فتعوض النقص في النوم نهاراً. والدي لا بد أنه في المقهى مع زملائه. البيت معتم وقلبي هجره الضوء.

بلغت السادسة عشرة منذ بضعة أشهر. والداي المنشغلان بشجاراتهما بسبب أمور تافهة نسيا عيد مولدي. لا ينسيان أبداً أعياد مولد شقيقيَّ. لا يهم. سأحتفل بهذه السنوات مع الشعر. منذ اكتشفت بول إيلوار Paul Éluard، توقفت عن قراءة الروايات. أفضّل الشعر. سمعت منذ أيام، على إذاعة فرنسية، أحدهم يؤكد أن "الشعر وحده ينقذ العالم". أنا في هذا العالم وأعتمد على الشعر للتخلص من ملل المجتمع ورداءته.

الناس يمضون وقتهم كله في الحكم على الآخرين. حين أزور خالاتي ألتزم الصمت امتناعاً عن المشاركة في حفلات الإدانة من دون دليل لهؤلاء أو أولئك، التي يمارسنها بحماسة خاصة. أمران مهووسات بهما: المال والجنس. بقدر ما يستفضن في الحديث

عن أسعار الأقمشة أو الدجاج، لا يتحدثن إلا بالتورية والتلميح عن أمور الجنس. والدتي تتجنب الحديث عن هذا الموضوع، وفي المقابل، تتحدث طوال الوقت عن المال. طبيعي! فهذه تربيتها. حين أرافقها أحياناً إلى السوق، أشعر بالخجل. تساوم على كل شيء. تقول لي: "اعلمي أن السنتيم[1] هو السنتيم. وإن كنت بحاجة إليه يوماً، فلا أحد، وأقولها بإصرار، لا أحد يعطيك إياه!"

حين أقرأ الشعر، أحس بنفسي خفيفة، وأشعر بأنني أطير وأجوب سماء المدينة. أشعر بأنني بلبل يطير سريعاً وهو بالغ التنبه إلى ما يبحث عنه. الشعر يخرجني من هذه الغرفة، من هذا المنزل القاتم، من هذه المدينة التي التهمها النفاق. الشعر كجواب، كدفاع، كروح هاربة.

أعلم أن الشعر هو الحياة، هو حياتي، هو ما يجعلني أرتعش. أستقل قطار الليل. أغمض عينيّ وأستسلم لهدهدات الإيقاع المنتظم لهذا القطار الذي يسير بأقصى سرعة في ليالي العالم جميعها.

في المرة الأخيرة، ألقى بي القطار في حلم. بلاد يكسوها البياض بكاملها. السماء والأرض باللون الأبيض. كان الضوء الساطع يبهر عينيّ. وأنا أمشي فوق العِبارات المخطوطة بعناية على الأرض. أسمع موسيقا حادة تتسبب أخيراً في استيقاظي.

أكتب، ثم أشطب أو أمزق الورقة. أكتب ما أظن أنه الشعر.

---

١ المقابل الفرنسي لكلمة سنت.

أتطرق إلى أمور بسيطة من حياتي. أروي ما أعيش، ما أشعر، ما آمل، ما أنتظر.

الشعر هو سرّي. لا أحد على علم بما أكتب. أنا خجولة. لا أحدّث أحداً عن هذا الشغف. كلّ شيء أودعه دفتري. يتملكني وسواس أنّ أمي ستكتشف ذات يوم دفتري وستقرأ ما كتبت. لن تفهم شيئاً. هي مباشِرة من دون خيال ولا تحترم حرية أولادها. ترى أننا ملكها وأن لها كامل الحقوق علينا. أكتب بالفرنسية وكذلك بالعربية.

لم يطّلع أحد، حتى الآن، على دفتري. لن يستطيع قراءته سوى شاعر واحد، شاعر كبير أو ناشر. لو أن إيلوار لا يزال على قيد الحياة، لبذلت جميع المحاولات لأرسل إليه محاولاتي الشعرية. في إمكان والدي أن يقرأ كتاباتي، لكن خوفه الشديد من والدتي قد يدفعه إلى توبيخي وتلاوة آية قرآنية عليّ تسخر من الشعراء. سبق وقال لي ذلك: " والشعراء يتبعهم الغاوون". وما عليّ سوى التأكد: "السورة ٢٦ الآية ٢٢٤!"

أنا من الغاوين وأطالب بذلك. أنا إيلوار، أراغون، أحمد شوقي الملقب في العالم العربي بـ"أمير الشعراء"، محمود درويش، رامبو Rimbaud، بودلير. أحفظ أشعارهم عن ظهر قلب، وأشعر بسعادة مطلقة حين أستذكرها.

حين تصدر الحياة ضجيجاً من ظلّ وفضّة
حين يكون ذلك انعكاساً في مرآة من دون قصدير
أنهض وأمشي في وجع الليل

حزني شقيقة مسمّرة على النول
ذكريات حياة لم أعشها
تنبثق كأشجار اقتُلعت لإشعال النار...

٦

مراد

أشعر بأن كل شيء يتقهقر لديّ. إنني في حاجة إلى تغيير الجو، وفي حاجة أيضاً إلى زيارة الطبيب. ألمّ صامت استوطنني منذ زمن بعيد. يجب ألا أنسى تناول أدوية الضغط، وأدوية انتظام دقات القلب وسواها العديد أيضاً.

على الطاولة الصغيرة، وضعت زوجتي علب أدويتها. أحصيتها. إحدى عشرة علبة وقارورة واحدة. هذا دليل علمي على أنها أشد مرضاً مني. لست في حاجة إلى عرض الأدوية التي عليّ تناولها يومياً. لا أحب كل هذه العلاجات الكيميائية التي تؤدي في النهاية إلى إتلاف الجسد. أرفض الانخراط في هذه اللعبة السخيفة. إنني على بينة من مشكلاتي الصحية، ولن أجعل منها قضية اجتماعية. كنت أنظر إلى علب الأدوية هذه وأجري حساباً بسيطاً: لو أنها ابتلعتْ، دفعة واحدة، كلّ هذه الحبوب، لأصبحتْ ربما محبوبة ولطيفة. واستبعدتُ عني فكرة مشاهدتها تموت بجرعة كيميائية زائدة. لا!

لم أبلغ بعد هذه المرحلة.

جاءت محنية الظهر كأن جسدها انطوى نصفين. تسير بصعوبة رافعة معصميها إلى مستوى خصرها. تتعرق، وتتأوه قليلاً لتنبهني إلى أنها تتألم وأن عليّ الاهتمام بها. أنا أعلم أنها تبالغ، وأعلم أنها تعرض آلامها بطريقة مسرحية، خصوصاً داء التهاب المفاصل. لا تتكلم. تسدّد إليّ نظرات عليّ فهم معناها. بتّ معتاداً هذا النوع من الفولكلور. تناولت كتاباً وغرقت فيه. أثار ذلك أعصابها. كادت تقع، فأطلقت صرخة، ثم انتهى بها الأمر إلى الصياح: "هكذا إذن، لا تهتم بحالتي. تنصرف إلى القراءة وأنا في حاجة إلى المساعدة، إنني أتألم ولا أستطيع الوقوف، وأشعر بآلام مضنية، وأنت لست هنا، أيها الأنانيّ!"

لا أجيب. أعلم أنها تمثل دوراً. ألقت بجسدها على المقعد مباشرة قبالتي، وأرجعت رأسها إلى الوراء. أعتقد أنها تبكي أو تفتعل البكاء. أعرف خططها. تصوير الأمر كمأساة، وتحميل الذنب، واجتذاب الاهتمام. ليست لديّ أدنى رغبة في الاهتمام بها. منذ الزمن الذي كانت تدعي فيه أنها تعاني من مرض خطير، عرفت أن عليّ تجنب الانخراط في لعبتها.

تركتها تتأوه وواصلت قراءتي. في الواقع، وجدت صعوبة في التركيز. هي تزعجني. حضورها ثقيل، وتمثيلها يرهقني. لم أعد أعتبرها زوجة. لا أظن أن عليّ واجباً تجاهها. هي هزيمتي. أعلم أنني مسؤول عن الوضع الذي آلت إليه. كان من شأن الأمور سلوك مسار آخر وحتى جعلنا سعيدين، لكن القدر كان يخبئ لنا المفاجآت.

كان عليّ الشك في ذلك.

غفتْ. بدأت الشخير. فاغتنمت الفرصة ووضعت جميع أدويتها في علبة أحذية. ستعلم أنني لن أجاريها في مسرحيتها.

خادمة التنظيف لم تحضر هذا الصباح. هذا غريب. لعلها أصيبت بأحد أمراضنا. هنا، المستشفى. هناك، مباشرة إلى جانب المطبخ، الصيدلية. ونحن الاثنين شركة صغيرة مهمتها استهلاك أكبر كمية من الأدوية. زوجتي مقتنعة بأن الدواء كلما كان سعره أعلى – هذا ما كان يؤلمها – كان أكثر فعالية. لكن لم يكن لديها أي رغبة في الشفاء. منذ وقوع الفاجعة، كان اهتمامها الأساسي أن تعاني من المرض. هي الحالة المفضلة لديها، وتقدمها على أيّ أمر آخر. علينا أن نشفق عليها. هذه خطتها لمكافحة العين الشريرة. كلّ نظرة توجه إليها من شأنها مفاقمة ألمها. تبذل جهدها كي لا تكون عرضة للحسد. لم يكن هناك ما تحسد عليه. حياة كفافٍ تقتصر على أقل الأشياء. أحتملها لأنّ لا شيء آخر أستطيع عمله. ليس لي مكان أقصده أو ألتجئ إليه. ولداي لا يبديان اهتماماً بمشكلاتنا. يأتيان لزيارتنا بدافع من الواجب لا الرغبة. تستقبلهما والدتهما وتشعرهما بأنهما مسؤولان عن الحالة التي آلت إليها. غالباً ما يندمان على مجيئهما. هي لا تحب زوجتيهما. وتقول: "زوجتاهما تمنعانهما من زيارتي. لقد فعلت كل ما يجب لتأمين تربية جيدة لهما، من أجل أن يحفظا الجميل. لم يعودا ولديّ. لقد استأثرتا بهما، وهيمنتا عليهما. النساء المغربيات مرعبات. في البداية، يكنّ مثالاً في الدماثة واللطف، وما إن يحققن رغبتهن، حتى يتبدلن ويهيمنّ ويُقصين. لقد أقصيتاني،

مع أنني عنيدة وقاسية، ولي خبرتي في الحياة، وقد حدث ما توقعته. والنتيجة أن ولديّ يبديان اهتماماً بحماتيهما أكثر من اهتمامهما بوالدتهما".

مع أنني أوافقها الرأي غير أنني لم أصرح لها بذلك. أنا بدوري كنت أظن أنني بمجرد أن أتقاعد، سيتولى ولداي الاهتمام بي. لكن ذات يوم، جاءني إلهام جليّ، شيء ما فرض نفسه عليّ بوضوح مذهل: أولادنا ليسوا لنا. آلمتني هذه الحقيقة. لقد أخطأت الحساب حين فكرت أنه لأمرٌ طبيعي تماماً أن يهتما بي وبوالدتهما. ثم تعلمت أن أتقبل أن لهما حياتهما ومشكلاتهما، وأننا أصبحنا عبئاً عليهما. لا ألومهما. شعرت بالحزن لكن الأمور هي هكذا. أما بالنسبة إلى والدتهما، فهي غير قادرة على تفهم هذا الأمر البديهي.

أتذكر فيلماً يابانياً رائعاً بالأسود والأبيض يمثل زوجين عجوزين يجريان رحلة من كيوتو إلى طوكيو لزيارة أولادهما. إنه فيلم من الخمسينيات. أعتقد أن اسمه Voyage à Tokyo [رحلة إلى طوكيو]. إنه يطابق تماماً واقعنا المغربي. حين يلتقي العجوزان أولادهما يدركان أنهم انفصلوا عنهما. آلمهما ذلك. أنا أعاني اليوم من الوضع نفسه.

اليوم، قررت تجاهلها. إن مرت أمامي، فلن أنظر إليها. إن كلمتني، فلن أجيبها. إن رفعت صوتها، فسأسدّ أذنيّ. اليوم هو يوم لي. لي وحدي. لن يكون لها وجود فيه. سيكون عليها أن تكدّ، أن تصيح، أن تتظاهر بالموت، فلن يهتزّ لي جفن. هذا أمر محسوم. يمكنني سجن نفسي في الحجرة الصغيرة في القبو التي اتخذتها

مكتباً، لكنها شديدة الرطوبة، وأخشى أن أصاب بألم في المفاصل. سألازم مكاني، أمام تلفزيوني، أبدّل القنوات وأتابع النقاشات حول حرب اليمن. هي تكره السياسة. ليس وارداً لديّ أن أرضخ وأتابع مسلسلاتها اللبنانية أو المصرية المثيرة للشفقة. الحياة، بالنسبة إليها، يجب أن تكون على صورة ما تراه في الشاشة. منازل بديكورات مشكوك في أذواقها، وشخصيات بماكياج مبالغ فيه، ونساء خضعن لعمليات تجميل أكثر من مرة. مرّ زمن طويل لم أتابع فيه معلومات عن العالم العربي. أعلم أنه لم يفتني شيء مهم على ما أعتقد. العرب يمزقون بعضهم بعضاً بنشاط، ويقعون باستمرار في الأفخاخ التي ينصبها لهم الأميركيون. هكذا ضاعت فلسطين، وتحولت مصر إلى مركب يبحر على غير هدى بقيادة دكتاتور، والمملكة العربية السعودية تستسلم طوعاً لسطو الأميركيين، والإرهابيون يمعنون في التمدد باسم الإسلام.

كان الحديث في السياسة من أكثر الأحاديث إثارة لاهتمامي في الماضي. كنت أحب قراءة الصحف في الصباح والدخول في نقاشات مع زملاء العمل. كان الموضوع الوحيد الذي يمكننا الحديث فيه. كنت أعلق على الأحداث اليومية وأنا أنفذ عملي. ثم نتابع النقاش لاحقاً أثناء استراحة الغداء. منذ تقاعدت، لم أعد أجد أحداً أبادله الحديث في الموضوع، خصوصاً زوجتي التي لا تملك أدنى فكرة عن الأمور التي تحاك في العالم. في السابق، لم يكن ذلك يزعجني. كان لديها عالمها، ولديّ عالمي وكنا نتساكن في عزلة صغيرة تلقي عليّ بثقلها من وقت إلى آخر من دون أن يتحول الأمر إلى مأساة.

أحياناً تنتزع من يدي الصحيفة التي أقرؤها وتذكرني أنها هنا، وأن عليّ احترام حضورها. أوافقها الرأي، فألتقط الصحيفة، وأطويها وأقترح عليها أن نلعب الورق. يزداد انفعالها. وتصيح: "نلعب الورق؟ لمَ لا نلعب الغميضة؟" من أين جاءت بحكاية الغميضة؟ من التلفزيون، لا شكّ.

إن مرّ صباح ولم أطمئن فيه إلى تطور أمراضها (هي متنوعة وكثيرة، وخصوصاً خيالية) تغضب وتعاقبني: "اليوم، بما أنك تتجاهلني، لن أعدّ لك الطعام، فما عليك سوى أن تقصد عبد الملك وتتناول سندويشاً".

عبد الملك كان المغربي الأول الذي أدخل السندويش إلى طنجة. كان ذلك مطلع الستينيات. سندويشه كان مشهوراً لأنه سخيّ ولذيذ ومنوّع. عائلات بكاملها تقف في الصف لتناول سندويش عبد الملك.

هي تعلم أنني أكره السندويشات. أحب الجلوس إلى المائدة وتناول الطعام بهدوء ومن دون استعجال. هذه لحظة مهمة بالنسبة إليّ.

لا أعلم منذ متى تحولت حياتنا جحيماً. بالطبع، حدثت الفاجعة، لكن مضت عليها سنوات عدة.

٧

مليكة

أحتفظ بذكرى جميلة من زواجنا. صيف ١٩٨٥ كان لطيفاً على نحو خاص. لا حرارة قوية، ولا رياح شرقية. عائلة مراد لم تكن كبيرة ولا متطلبة، ما يناسب والديّ جداً. كان والدي يحمل بين يديه دفتره الأحمر الذي كان يدوّن فيه جميع النفقات. وكان قد رصد مبلغاً معيناً يجب ألا يتجاوزه بأيّ حال من الأحوال، لا، بل كان يحاول أن يقتصد فيه. والدتي كانت تجاريه، حتى لو كانت تريد أحياناً إنقاذ المظاهر. الاحتفال الصغير جرى كما يرام. الهدايا كانت ذات نوعيات. شريك والدي أهدانا ثلاجة. زوجي كان سعيداً وخجلاً نوعاً ما. في الليلة الأولى، نزع ثوبي برفق، وداعبني طويلاً. شعرت بنوع من الخوف لديه، وهو بلا شك الشعور نفسه الذي عانيته. كنا من دون تجربة: أنا عذراء، وهو لا بد أن يكون قد أقام بعض العلاقات مع خادمات أو حتى عاهرات، على ما أعتقد. في الظاهر، كان موهوباً إلى حدٍّ ما. مداعباته كانت لطيفة. أخذ كامل

وقته في استكشاف جسدي. احتضنه طويلاً وهمس في أذنيّ كلمات لطيفة كتلك التي كنت أسمعها في بعض الأغاني المصرية. وقبل اللحظة الحاسمة، بدا متوتراً، ثم اخترقني فصرخت.

كان الدم قد سال على الشراشف. وكنا مطمئنين. أنا كنت أعرف أنه ليس هناك ما أخشاه، فما من رجل قاربني، وهو لم يجعل من الأمر قضية، حتى أنه قال لي: "سيكونون مسرورين، فشرفهم مصان!"

صبيحة اليوم التالي، جمعت والدتي الشراشف وهي تطلق صيحات الفرح. عذريتي، شرفي، شرفهم. كانت جميعها سليمة، والحياة الجديدة يمكنها أن تنطلق. سمعت دعاءات وتسبيحات تمجد نبيّنا. كان كل شيء قد جرى على ما يرام. لم يكن على الزوجة أيّ مأخذ. والزوج أثبت أنه رجل. بإمكان العيد أن يستمر.

أثناء خروج مراد إلى الحمام، جاءت نساء العائلة لزيارتي ووجهن إليّ أسئلة شديدة الإحراج. إحدى نسيباتي سألتني عن حجم قضيب زوجي، وأخرى همست في أذني تستعلم هل لعق عضوي. لم يكن لفضولهنّ حدود. والدتي لم تكن أكثر لباقة. طرحت عليّ مباشرة السؤال: "هل إثارته جامحة؟ هل هو رجل حقاً؟" لم أجب حياء، وقلت لها إنه ليس هناك ما تقلق بسببه. إحدى خالاتي، المعروفة بصراحتها، وكذلك بابتذالها، سألتني: "هل..." فأسرعت أمي لإطباق فمها بيدها، لأنها كانت تعلم جيداً السؤال الذي ستطرحه.

كنا في الأشهر الأولى نسكن لدى أهلي. كانت الأمور تجري على أفضل حال. كنا عاشقين ولم نكن نتحدث عن الموضوع.

كانت والدتي قد علمتني الخياطة. تخصصت في القفطان التقليدي، وبفضل العلاقات العائلية، تلقيت طلبات. زوجي كان محاسباً في شركة لشريك أبي. كان جاداً ومقدَّراً. حملت بعد ثلاثة أشهر من زواجنا. أتذكر فرحة مراد. غنى ورقص وصفق بيديه.

وصل الحب ببطء، لم يكن حباً صاعقاً. كنت أقول في نفسي: "سنتعلم العيش معاً، وربما أن يحب واحدنا الآخر، أو ستكون كارثة علينا تحملها حتى النهاية". لا طلاق في العائلة. هكذا هي الحال، أمر واقع، ومبدأ. نستمر حتى النهاية، حتى لو كانت الحياة جحيماً. إلا إن قرر هو تطليقي إن لم أحمل له بابن. الأمور تجري هكذا دوماً.

كانت والدتي قد نبهتني: "احبلي سريعاً". وأضافت بقليل من السخرية: "وبعدها ستثقلينه، ستجعلينه ينجب ثلاثة أو أربعة أولاد، وهكذا يصبح محاصراً لا يستطيع الحراك، وستحتفظين به حتى النهاية. أكرر عليك هنا ما قالته لي أمي وجدتي حين تزوجت والدك. تعلمين جيداً أن المرأة في هذه البلاد ليست لها حقوق، ولذلك تفرض خياراتها وتتدبر أمورها بما منحتها إياه الحياة!"

إثقاله؟ لم أحب هذه الكلمة. عبء، حمل ثقيل، أليس هناك سوى هذا للحديث عن إنجاب الأطفال؟ ومع ذلك، عملت بنصيحتها...

لم يكد ينقضي وقت قصير على خطوبتنا، حتى اقترفنا، مراد وأنا، عملاً جنونياً. علاقاتنا كانت منضبطة جداً، كما سبق وذكرت، ووالداي لا يسمحان لي بالخروج معه سوى يوم الجمعة، بعد الصلاة. معظم الأوقات كنا نتنزه على طول الكورنيش في جادة إسبانيا، ونتناول المثلجات في فالانسيانا ثم يعيدني مباشرة إلى

المنزل. لكنه ذات يوم قال لي إننا سنمضي بعض الوقت لدى أحد أصدقائه. فهمت أن لا شيء من ذلك حين دفع باب أحد النزل الإسبانية أسفل بولفار باستور. أعطى البواب قطعة نقود فسلمه في المقابل مفتاحاً. رفضت أن أتبعه. ليس في حسابي أن أجد نفسي وحيدة معه في غرفة فندق. نشاهد ذلك في الأفلام لكنني لست ممثلة. على أيّ حال، لمزاولة هذه المهنة، يجب أن أكون عاهرة نوعاً ما. جذبني من ذراعي، وتوسل إليّ قائلاً إن الأمر لا يعدو دعوة لتناول كوب من الليموناضة بهدوء. رضخت أخيراً. ما إن دخلنا الغرفة ذات الستائر المسدلة، جذبني إليه، وهنا أعترف بأنني أصبت بنوع من الدوار، وكدت أغيب عن الوعي. شعرت بصلابة قضيبه فاشتعل جسدي رغبة. لم أعد أعرف أين أنا ولا ما أفعل. ومع ذلك، ظللت متمسكة بفكرة راسخة فيّ، وهي الاحتفاظ بعذريتي حتى الزواج. رفع ثوبي وداعبني بين فخذي. دفعته عني بكل قوتي وأنا أشعر بلذة غير مسبوقة. وكان صراعاً غير متكافئ، فمن جهة، كنت أناضل لمنعه من المضيّ بعيداً، ومن جهة أخرى، أكافح كي لا أقع فريسة رغبة شيطانية، غريبة وفي الوقت نفسه ممتعة للغاية. صرخت، فانفصل عني وراح يعتذر. سويت وضع ثيابي، وشاهدت للتو لطخة عند فتحة سرواله. لحظة خروجنا من الغرفة، اعترضنا رجل بلباس رمادي وقميص بياقة رثة وربطة عنق بعقدة رديئة ذات لون رمادي أو بنّيّ. لم أعد أدري. أخرج محفظته وفيها بطاقة شرطي. توجه بالسؤال إلى مراد: "من هي هذه المرأة؟"

– خطيبتي.

– هل تحمل وثيقة الزواج؟

– لا، لكننا أنجزنا للتو أوراقنا، ونستعد لعقد قراننا هذا الصيف.

– آه، حسناً. وتعتقد أن هذه الرواية ستجوز عليّ؟ ألا تعلم أن المادة ٤٩٠ تمنع العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج المنجز؟

– لا، لم أكن أعلم.

– إنك تسخر مني. هيا معي، أنتما الاثنان، إلى المركز.

بدأت البكاء وأنا أتوسل إليه أن يسمح لنا بالمغادرة.

– أنا أؤدي واجبي. اتصل بنا أناس شريفون. أنتما عار على المجتمع. هل تعلمان عدد السنوات التي ستمضيانها في السجن؟

قال مراد مباشرة: "سنسوي الأمر".

– حسناً! وكيف؟ ستقول للقاضي إنكما كنتما تقومان بنزهة في الحديقة العامة. لا، الأمور لا تجري على هذا النحو.

أخرج مراد ما في جيبه من نقود. ورقتان أو ثلاث من فئة مئة درهم. ساد صمت. صمت طويل حبست خلاله أنفاسي. العار. لمحت بقعاً حمراء على عنق خطيبي. تظاهر الشرطي بالتفكير. نظر إلى الأوراق المالية، وأدار رأسه، ثم، كالسارق، اقترب من مراد وانتزعها منه بحركة مفاجئة وعنيفة.

– في المرة المقبلة افعلا ذلك في منزلكما! ضيق صبركما سيودي بكما.

ثم انسحب بعدها. لدى خروجنا من النزل، سدد مراد نظرة غاضبة إلى البواب ثم انطلقنا راكضين.

نعم كنت ضيقة الصبر. كنت أمضي وقتي وأنا أحلم باللحظة التي

أمنح فيها نفسي لرجلي بكل شرعية. كان ذلك آخر خروج لنا يوم الجمعة. كان يكتب لي قصائد حب مؤثرة إلى حدّ ما. آناً بالعربية وآناً آخر بالفرنسية. لم أكن قادرة على مجاراته في كتابة أشعار بمثل هذا الجمال. تحصيلي العلمي لم يتجاوز شهادة البريفيه. انقطعت عن الدراسة بسبب قلق والديّ الدائم عليّ. لم نكن سوى ثلاث فتيات في صف من ثلاثين تلميذاً. هذا الاختلاط كان يقلق والدي. أما والدتي، فكانت آسفة على تركي المدرسة لكنها لن تعارض قراراً اتخذه زوجها.

٨

سامية

١٣ أكتوبر ٢٠٠٠

يريد أخواي أن أشاركهما اللعب. ليست لديّ أيّ رغبة في ذلك. لم أعد طفلة، على الأقل كما أحسّ. أتساءل أحياناً من أين تأتيني هذه الرصانة. لست طائشة، ولا أنا كالآخرين في الصف، فمن دون جهد، أنال أفضل العلامات، وهذا ما يتسبب لي في حسد مخالف للعقل. لم ألعب مرة بالدمى، وأجد الباربي سخيفة. أرى العالم كما هو عليه. ليس بالغ الجمال، وفي الوقت نفسه لا أفقد الأمل في رؤية والديّ يعيشان في وئام ذات يوم، سعيدين ومفعمين بالحيوية.

أحلامي ليست ضخمة. أصنفها في فئة أطلق عليها اسم "الممكن". لا أحلم بالصعود إلى القمر ولا بلقاء "الفارس الساحر". ما حكاية الأمير هذه؟ السحر لا يمنح تلقائياً للأمراء. أحلم مثلاً أن أشبّ في محيط هادئ. لا أحتمل الفقر الذي يطالعني حيثما نظرت

في المدينة. أعداد كبيرة من المتسولين، أعداد كبيرة من الأطفال المشردين، كثير من الظلم. تقول لي والدتي إنها إرادة الله ولا نستطيع حيال الواقع شيئاً! نحمّل الله مسؤولية سواه. أحصيت منذ أيام، بين البيت والمدرسة، سبعة متسولين بينهم امرأتان تحمل كل منهما طفلاً وتعرضه استدراراً للشفقة.

وأعلم أن الشعر لا يستطيع شيئاً حيال هذا الوضع. أحتمي بالكلمات كي لا أتألم لرؤية هذا المشهد. والدي لا يفتأ يذكرني بأنني طفلة نضجت باكراً. هذا ما أسميه "رصانتي".

لمحت للتو الرجل الذي أهداني قلم الحبر. ابتسمت له. قدم إليّ صحيفة وهو يقول لي: "ذات يوم، ربما، ستنشر قصائدك على الصفحة الأولى. ذات يوم. الآن اشتغلي، الكلمات خطيرة، وفي حاجة إلى ترويض...". شكرته وانطلقت وأنا أكاد أركض.

صحيفة "الشعر" كناية عن صفحة كبيرة مطوية نصفين. تصفحت النصوص المنشورة. لا شيء استثنائي. لا أفهم لماذا تصاحب صور هؤلاء الشعراء الشبان قصائدهم. هم في الغالب فتيات. فوجئت برؤية صورة غزلان، ابنة عمي. لم أكن أعلم أنها تكتب الشعر. قرأت قصائدها وأعدت قراءتها. وجدتها مشوشة وعلى شيء من السذاجة. غزلان فتاة جميلة، وتكبرني بعامين. أعلم أن والديها يشكوان من خروجها المتكرر. باكراً جداً حصلت على الحق في اتخاذ صديق. والداي لن يتقبلا ذلك. حاولت مرة الدفاع عنها أمام والديّ، فلم أسمع منهما سوى أحكام من دون سند. حتى أن والدتي كانت تشك في أن تكون على علاقة مع رجل متزوج. علمت بذلك في الحمام،

الغرفة الحقيقية لأصداء المدينة. هناك نحيا ونحن نفكر كلّ الوقت في ما يمكن أن يقوله الناس. رأي الآخرين فينا يصير هاجساً. نخشى أن يدلّ علينا بالأصابع، أو استهدافنا بتلميحات ذات طابع جنسي.

ابن جارتنا أوقفه رجلان قدما نفسيهما أنهما من الشرطة. هو في سنته الثانوية الأخيرة. قالت لي والدتي: "يشتغل في السياسة. العمل في السياسة في هذه البلاد معناه أنك لا تحب ملكنا الحبيب!" إنها تقصد محمد الثاني الذي لم يكلف نفسه مرة زيارة طنجة.

والداه لا يعرفان عنه شيئاً. يخشيان غياباً مخططاً له، كما يحدث غالباً للمعارضين. لكن هذا فتى لم يتمّ بعدُ السابعة عشرة. الشرطة تقول إنها تبحث عنه. وتزعم أن لا الشرطة ولا رجال الدرك هم من اعتقلوه.

أفكر غالباً فيه. وأقول لنفسي: "ماذا لو تأكد غيابه؟ يا للهول!" ذات صباح، ظهر، وكأن شيئاً لم يكن، ولا يريد أن يذكر أين كان. أعتقد أنه كان متورطاً في قضايا مخدرات.

اغتنم والدي الفرصة ليلقي عليّ درساً: "اسمعي، يا ابنتي، إننا نسكن بلاداً تكونين فيها بسلام ما دمت لا تهتمين بالسياسة. لكن إن قررت يوماً أن تتمردي، وأن تعارضي ملكنا المحبوب، فهذا يعني أنك تعملين في السياسة، والعمل في السياسة عندنا، يعني أنك وضعت نفسك خارج المجتمع، وهنا تأخذ الأمور منحى سيئاً. لذا عليك بالاجتهاد في المدرسة ولا تلقي بالاً لما تبقى. الفقراء؟ لطالما كانوا موجودين دوماً، فأنت لن تغيري وجه العالم". لفتّ نظره إلى

أنه يتحدث عن حقبة ماضية. وذكّرته بأن الملك الجديد سيبدل كل هذا. كان شاباً، ووسيماً، وصاحب عزم وتصميم، وخصوصاً رجلاً حديثاً. تنهد والدي وقال لي ضاحكاً: "أنت مغرمة...".

تبديل وجه العالم بالرمل والكلمات
ارتقاء الجبل سيراً إلى الوراء
لكن هذه الحياة ملأى بالثقوب
بآبار من الرماد والأفخاخ
أسير وعيناي مفتحتان
لأنني أعلم أن الإنسان طيب
ونومه سيئ جداً...

٩

مراد

أنا رجل يتعرض للمشاكسة والإزعاج. أشعر حتى أنني مجروح أحياناً. ضعفي حيال مليكة جعل مني نصف رجل. إن كنت اليوم في هذه الحال، وإن كانت علاقاتنا قد أضحت سامّة، فهذا خطئي بدرجة أساسية.

بعد بضعة أشهر على زواجنا، وبفضل مسابقة أجرتها وزارة التجهيز، تركت الشركة التي يملكها شريك والد زوجتي وانضممت إلى الإدارة العامة. أصبحت موظفاً جاداً ومحترماً ومصدر حسد حتى. لم يكن راتبي مدهشاً لكنه يؤمّن لي استقراراً. ساندت مليكة هذا التغيير. كنت أعتقد في البداية أنها تفكر، مثلي، في أنّ وظيفة في الدولة أفضل من وظيفة في شركة مستقبلها غير مضمون. راتبي في الوزارة كان أعلى بشكل ملحوظ، وهذا ما أفرحها. تركنا منزل والديها، وكانت حياتنا الجديدة مُرضية إلى حدّ ما. كانت مليكة تخيط القفطانات، وأنا أشغل مكتباً مع زميلين آخرين أحدهما يرشّ

نفسه كل صباح بعطر يتسبب لنا في الصداع. بقليل من اللباقة، نجحنا في دفعه إلى إبداله، لكننا لم نستطع منعه من التدخين في حضورنا.

انتشرت شائعات في جميع أرجاء المدينة أن المكتب ٩ المخصص لي كان يطلق عليه اسم "مكتب القهوة". هنا، لا بدّ من إيضاح. لم يكن في مكتبنا بالطبع آلة لتحضير القهوة. لكن في تلميح إلى الفساد، كان الناس يقولون: "يحبون القهوة كثيراً"، وكان بعضهم يضيفون: "القهوة القوية والنقدية". في البداية، لم أكن أفهم كيف يمكن أن تكون القهوة نقدية. فكان زميلاي يسخران مني ومن نزاهتي التي كانت تبدو لهما غريبة. لم يكن بإمكان الثلاثي أن يعمل جيداً لأنني كنت حبة الرمل التي تعرقل الآلة. كنت هكذا، تربيتي، مناقبي، أخلاقي، طبعي... لم تكن تترك أيّ مجال للفساد. كنت معتزاً بكوني ذا نزاهة خطيرة. في البداية، كان زميلاي يتسلحان بالصبر، ما دفع أحدهما إلى القول: "لقد مررنا بهذه المرحلة. سترى. ستنضم كما الجميع. أنت تلعب الآن دور البطل، سنسهل لك الانضمام...". وكان الآخر يقول: "ولكن من أين أنت... إلا إن كنت سويدياً!" ويطلقان ضحكة عالية، ضحكة قبيحة وراضية ومزعجة.

كنت أرفع كتفيّ وأؤدي عملي. الجو العام أضحى مزعجاً أكثر فأكثر. كان صاحب العطر يضاعف الكمية ليضاعف إزعاجي. أفتح النافذة لتهوية الغرفة، فيقفلها. شريكه يطلق تعليقات فظة من أجل توتيري أو لجعلي ألين. كنت أقاوم. لم أحدّث أحداً في الموضوع. رئيسي المباشر استدعاني يوماً ليطلب مني أن أقدم إثباتاً على شيءٍ من مغربيّتي. نظرت إليه مندهشاً.

– ما حكاية المغربية هذه؟ أنا لست جزائرياً...

– أنت تفهم ما أقصد، لكن بما أنك شخص حسن التربية، فإنك ترفض تقبل الواقع.

وحين وجد أنني ما زلت على موقفي، شرح لي الأمور: "قليلاً من التساهل، يا صديقي. من دون هذا التساهل سيموت الجميع جوعاً. هل تعتقد أن رواتب الدولة تسمح لنا بالعيش اللائق؟ كم يبلغ راتبك؟ لا بد أنك في الرتبة ٣. أنت متزوج، وأعتقد أن لك أولاداً أو سيكون لك قريباً، فكر إذن... اقرأ ما بين السطور...".

حييته وخرجت محبطاً. بالطبع، كنت أعرف كلّ ذلك، كان والدي يحدثنا عنه طوال الوقت.

أنهيت دراستي. وتقدمت بطلب للحصول على جواز سفر. ملأت كمية من الأوراق المطلوبة ولحظة استعدادي لتقديم الملف، نبهني والدي: "ابني المسكين! هل تظن أنهم سيمنحونك جواز سفر من أجل سواد عينيك؟ اصرف النظر. ليس لدينا الإمكانات للحصول على جواز سفر. لكي أحصل على نسخة عن إخراج قيد النفوس، كان عليّ أن أدسّ ورقة مالية للموظف، فحصلت عليها مباشرة. لكن من أجل الحصول على جواز سفر التعرفة أعلى بكثير، وهي بحدود... أفضّل ألا أتطرق إلى هذا الاحتمال. اصرف النظر. ستتجول في بلادك. المغرب جميل وثمة عدد من المواقع لاستكشافها".

كان عليّ انتظار سنة بأكملها للحصول على جواز سفري. كنت فرحاً لأنني لم ألجأ إلى رشوة أحد. لكن الموظف، كي ينتقم مني، أدخل على جوازي عدداً من الأخطاء التي شملت اسمي وتاريخ

مولدي وحتى اسمَي والديّ. لم يعد اسمي مُراد بل مَراد، واسم أبي تمّ تحريفه، فتحول حسن إلى حسين، وفُطَيمة لاسم أمي بدلاً من فاطمة. أما تاريخ مولدي، فخرجت معه أكبر بعامين!

وهكذا حملت معي وقتاً طويلاً جواز سفر حقيقياً لكنه مزيّف. كان ذاك الثمن الذي دفعته في صراعي العنيد مع الفساد.

قرر زميلاي تبديل خطتهما. فقد أصبحا ودودين ومتفهّمين، ما أثار انزعاجي. كانا في حاجة إلى توقيعي على بعض الملفات، وكنت أستغرق وقتاً في دراسة معمقة للعناصر المطروحة. في الغالب كان ينقص مستند أو اثنان، فكنت أرفض التوقيع ما دامت هذه الأوراق لم تقدم إليّ. كان رفيقاي يغضان الطرف. أما أنا، فلا.

كنت في البداية، حين أعود إلى البيت، أشكو أمري لمليكة. وكنت ألاحظ أنها لا تكاد تصغي إليّ. لم أكن أفهم موقفها. ذات يوم، ألقت بحذائي بجانب سلة المهملات وهي تصيح: "النعال مثقوبة".

– نعم، أنا أعلم، كنت أفكر في أخذها إلى الإسكافيّ.

– الإسكافي لن يستطيع إصلاحها. أنت في حاجة إلى حذاء جديد، وراتبك لا يكفي. أنا لا أتحدث عن نفسي، فلحسن الحظ، تؤمن لي الخياطة شراء مستحضرات التجميل التي أحتاج إليها، لكن لا يمكننا الاستمرار في العيش كالفقراء.

– حتى مع راتبي الجديد نحن فقراء!

– بالنسبة إليّ، أنا أرفض العيش في هذا الشقاء. أنا أكره الفقراء.

وأقولها بكل صراحة: إن كانوا فقراء، فتلك مسؤوليتهم. وهذا ينطبق أيضاً عليك.

– وماذا تقترحين؟

– ما أقترحه؟ لكن افتح عينيك أخيراً، من أين أنت قادم؟

أدركت ذلك اليوم كم أن وحدتي ستكون شاسعة! أفهم أن يشعر زملائي بالغيظ لأنني لا أجاريهم في لعبتهم، فذلك طبيعي، لكن أن توافقهم زوجتي الرأي، فهذا ما يتجاوز الحد!

رددت هذه الكلمة، "يتجاوز الحد"، كأنني أسعى إلى تهدئة نفسي. سمعتني: "ما حكاية تجاوز الحد هذه؟ أنا لست تجاوزاً للحد، هل تسمعني، أنا من عائلة محترمة ومثقفة أكثر منك بكثير! فلا إهانات تهمسها في لحيتك".

كان ذلك في المرحلة التي أطلقت فيها لحيتي لاكتساب المظهر الرجولي.

كنا في انتظار مولودنا الأول. وكنت أبذل جهداً للظهور بمظهر المرح والخدوم والفطن. كانت في مزاج سيئ طوال الوقت. لم أكن ألومها، وكنت أحاول من وقت إلى آخر أن أبث جواً من المرح.

ذات يوم صاحت في وجهي: "لا طاقة لي على المرح، ولست منافقة!"

في المساء، اقتربت منها لممارسة الحب. فدفعتني عنها قائلة: "ابدأ أولاً بحلق هذه اللحية السخيفة".

وهذا ما فعلته مباشرة.

في اليوم التالي، حضر وزير الوصاية، وزير الأشغال العامة

والتجهيز، في جولة تفتيشية على مكتبنا. كان يرتدي قفازات بيضاء. وجدت ذلك غريباً. لحظة وصول الحاكم، خلعها لمصافحته. عندئذ، رأيت ما كان يخفيه. كان يعاني من البهاق: بقع بيضاء وأخرى زهرية تغطي يده. حين غادر تحدثت عن الأمر إلى زميليّ. فبدآ الضحك. رجل العطر المزيف تبرع بتفسير: "وظيفته معروفة للقهوة. وبما أن ضميره يؤنبه، ويضعه في مواقف أليمة، يترجم ذلك كيميائياً بظهور هذه البقع التي تمنحه مظهر البقرة".

وجد زميله أن هذا التفسير لم يكن واضحاً بما يكفي، فأضاف: "هو مثلك. في البداية، لم يكن يتقبل الواقع، ثم ما لبث أن انضم إلى الصف. هنا، الصف، الطبيعي، هو المغلف المدسوس في كتاب طبخ أو كتاب جَيب لا يقرؤه أحد. انتبه! إن لم تبدّل موقفك، فسيكون لك مثله جلد بقرة جميل!"

١٠

مليكة

أحب زوجي لكنني لا أعرف كيف أبوح له بذلك ولا كيف أبديه. نعم، لقد أثار غضبي حين كان يؤكد أنه نزيه وأنه لن يلمس في حياته سنتيماً ملوثاً. لكن ما لم يكن يعرفه أو لم يكن يريد تقبله أنه كان الوحيد الحريص على هذه النزاهة التي فقدت معناها في بلاد صار الفساد فيها اقتصاداً موازياً لا غنى عنه. أولادنا قصدوا المدرسة الرسمية. كنت أحب أن يتابعوا دروسهم في معهد خاص. لكن مراد كان يرفض. كان يساعدهم في واجباتهم ولا ينضب مديحه للخدمة العامة.

بسبب انعدام تساهله، كنا نتمكن بشق النفس من إتمام شهرنا. كان يقول: "أنا نزيه في وسط من الفاسدين. أنا نزيه لأن هذا يمنحني النوم الهنيء".

في هذه الأثناء، كان ينقصنا أشياء كثيرة. كنت حانقة عليه وأعترف أن الرغبة في ضربه راودتني مرات عدة. ضربه، نعم،

لأنه كان عنيداً وخارج الواقع. في المبدأ، كان من شأن تربيتي أن تدفعني إلى تهنئته ومساندته في نضاله ضد العفن المتفشي في البلاد. لكنني واقعية. وهكذا، يوم اشترت ابنة عمي حزاماً من الذهب التقليدي، طفر الدمع من عيني. كنت أعرف كم يكسب زوجها. كنت أعرف أنه يقبض المال بصفته قاضياً. الجميع كانوا يعرفون ذلك. حتى أنهم كانوا يتحدثون عن تعرفته. لقد استخدم سمساراً كان يتصل بالزبائن ويقترح عليهم تسوية قضيتهم مقابل مبلغ معين. لم يكن هو يظهر في العملية، فلا أحد يمكنه الشك فيه أو اتهامه بقبض المال. أنا بالطبع، على الصعيد الأخلاقي، أدين هذه الممارسات، لكن زوجي لم يكن قاضياً. كان محاسباً بسيطاً عليه وضع توقيعه على مستندات للسماح للناس باستثمار أموالهم. كنت أقول له إنه لن يسيء إلى إنسان، في حين أن القاضي كان يحرم أبرياء العدالةَ. الأمر مختلف جداً.

كان الحب قائماً بيننا. وكان التفاهم يسود علاقتنا معظم الوقت في السنوات الأولى لزواجنا. كان لطيفاً وكنت رقيقة. كان فطناً وكنت جاهزة لتلبية أدنى طلباته. كان أنيقاً وكنت جميلة لأن الحب كان يجمعنا. لم يكن يدخل مرة إلى البيت فارغ اليدين. كان يحمل زهرة، بعض الفاكهة، حلية بسيطة، قطعة نسيج.

حين أخبرته أنني حبلى، جُنّ من الفرح. جثا على قدميه وقبّل بطني. لمحت دموعاً على وجنتيه. تذكرت ليلة اشتهيت موزة. وشهوة الحبلى لا يمكنها الانتظار. خرج في الثانية صباحاً وعاد

بعد ساعة حاملاً كيلوغراماً من الموز.

كان مراد رجلاً رائعاً. كنت طيبة ولا أوفّر جهداً من أجل أن تشعّ سعادتنا وتستمر.

١١

مراد

خبر مفرح. وافقت مليكة، رغم حالتها، على الذهاب لتحضير جهاز العرس لابنة أختها التي تحبها كثيراً. سيكون بإمكاني الاستمتاع بيوم، وربما بليلة، من السلام. هدوء غير متوقع. أستطيع أن أرتاح وأن أفعل خصوصاً ما يخطر في بالي من دون أن أسمع تعليقاتها اللاذعة. كطفل في يوم عيد ميلاده، بدأت أنظّم في ذهني لائحة ما أنوي عمله. لمجرد رحيلها، شعرت بتحسن والبيت بدوره استراح. الجدران وقطع الأثاث والغرسات والسجاد جميعها تبدو في حالة جيدة. أشكر ابنة الأخت هذه التي خطرت لها هذه الفكرة العبقرية لأمنح نفسي يوم عطلة، مأذونية، كسجين نال إذن خروج لحسن سلوكه.

نحو العاشرة، ارتدت مليكة ثيابها. وضعت الجلابية وانتظرت مجيء أختها بالسيارة لأنها تسكن منطقة الجبل القديم. ما إن رنّ جرس الباب، حتى قفز قلبي وبدأت أبتسم كالأبله.

أول ما فعلته كان الأكل. جلست في المطبخ وفتحت الثلاجة وأخرجت منها كلّ ما كنت أشتهيه. وضعت شرائح خبز في آلة التحميص وفتحت علبة زبدة. أعشق الزبدة بالخبز المحمص. أعلم أن ذلك سيئ لأنه يؤدي إلى زيادة نسبة الدهون في الدم. درجة بالزائد أو بالناقص في معدل الدهون لم تعد ذات أهمية في نظري. حضّرت قهوة لذيذة. تنشقت رائحتها وشعرت بالسعادة.

بعدها، عمدت إلى الاهتمام بمظهري، فبدلت ثيابي الداخلية وكذلك القميص، وأخرجت بذلتي القديمة التي أرتديها في المناسبات المهمة. عقدت ربطة عنق من ماركة Hermès التي أهدتني إياها زوجة مروّج عقاري كانت في رحلة إلى باريس، ثم جلست في الصالة بعدما فتحت النوافذ. أخرجت سيجاراً كنت قد خبأته منذ مدة طويلة وأشعلته. دخنت في الصالة بمتعة لا توصف. سكبت لنفسي بعض الكونياك وشعرت بنفسي أحلق في السماء. آلامي اختفت ومعها تعبي.

بعد قليل، فتحت مفكرتي وقررت الاتصال بزليخة، حبيبتي الأولى، الأولى والأخيرة. كان من المفترض أن نتزوج لكن والدها بذل ما في وسعه للتفريق بيننا. كنت لا أزال طالباً ولم يكن لي وضع مستقرّ بعد. كيف أنسى ذاك اليوم الذي فررنا فيه معاً وأمضينا الليلة في فندق في سبتة.

في صبيحة اليوم التالي، جاءت والدة زليخة تبحث عنها، وهددتني برفع شكوى أمام الشرطة بتهمة التغرير بقاصر. كنت أكبرها بعام واحد فقط وكنت قاصراً بدوري...

بسبب تلك الحادثة، غادرت عائلتها طنجة، وانقطعت عني أخبار زليخة.

كل ما علمته لاحقاً أنها تزوجت رجل أعمال من الناظور لعله مهرب مخدرات، وأنها رزقت بثلاثة أولاد، وأنها اكتسبت وزناً. ترملت باكراً، فتزوجت من جديد عقيداً في الجيش كان يخدم في ريف جنوب المغرب.

من آخر أخبارها أنها تطلقت وانتقلت للسكن في بيت أهلها في طنجة.

اضطربت يدي ما إن حملت السماعة وطلبت الرقم القديم. كنت واثقاً أنه لم يعد له وجود وأنه لن يرد عليّ أحد. قررت المحاولة، ومع الرنة الثالثة سمعت صوتاً أليفاً يجيبني: "من هناك؟"

– هذا أنا.

لحظة صمت أعقبتها ضحكة رنانة تملك هي وحدها سرّها. بدأت الضحك بدوري. مضى أكثر من أربعين عاماً على انقطاعنا، ولا تزال لدينا الرغبة نفسها في الضحك وتبادل الكلام. تبادلنا بعض الترهات ثم اعترفت لي بأنها لا تزال، مثلي، مسكونة بذكرى تلك الليلة في سبتة.

– أستعيد التفكير غالباً في هذه الرحلة، في الأمسية ومن بعدها الليلة في تلك المدينة المغربية التي تحتلها إسبانيا. شهدت الكثير في حياتي، غير أن عطور تلك الليلة وضحكاتها وكلماتها لا يعادلها شيء.

– وأنا بدوري كم تراودني ذكراها! شريط هربنا استعدته ألف مرة

وأحب تذكره في أدنى تفاصيله. كطعم تلك التورتيلّا التي تناولناها على الشاطئ. ثم رؤية والدتك عند الصباح في ردهة الاستقبال في الفندق، وأنا أرتجف أمامها محاولاً أن أشرح لها أننا نحب بعضنا. أجابتني وهي تشتعل غضباً: "أيّ حب هذا؟ هل تظنان نفسيكما في فيلم؟"

فجأة شعرت بصمت على الطرف الآخر من الخط. وقالت زليخة بتلعثم: "شكراً يا مراد على اتصالك".

- لا تقفلي الخط، لدينا كلام كثير نقوله...

- نعم، لكن عليّ قطع المكالمة فقد حان موعد الصلاة.

كنت متفاجئاً ومحبطاً. لقد أصبحت مؤمنة. هي التي كانت تنتقد كلّ الأديان، والتي كانت ترتدي في الغالب ثياباً مستفزة. هي المتمردة، هي العاشقة الجميلة الرائعة، عاشقة الحب والجنس، تتحول مسلمة ملتزمة! لم أصدق ذلك. حين أعدت السماعة إلى مكانها مكثت خائر القوى كأنني في حالة ذهول، عاجزاً عن استعادة مزاجي الجيد. انفعال شديد اجتاحني. شعرت بآلام رهيبة في المعدة. صدمة سماع ضحكتها ثم الدعاء إلى الصلاة.

أعدت إغلاق النوافذ، وأفرغت منفضة السجائر، وخلعت بذلتي، ولبست بيجامتي وجلست من جديد في مقعدي القديم أشاهد التلفزيون. كان هناك إمام يصيح منددا بالرجال والنساء الذين يبتعدون عن الفضيلة. كان ذا وجه بقبح لا يحتمل، من ذلك النوع الفاسد الذي يمارس كلّ شيء في الخفاء. كان يظن نفسه أمام جمهور مطيع ومتسامح. أثار غضبي، فأطفأت التلفزيون

وتناولت صحيفة قديمة ملقاة في الجوار وقرأت أخباراً لم تعد ذات أهمية.

الذكريات شريرة. لا أعرف أين ستعشش ولا كيف تنبثق من جديد لتذكّرنا بأنها ليست سوى بتلات أو ندى يتلاشى ما إن نفتح أعيننا. لذا أكره الحنين إلى الماضي، حتى لو كانت الرغبة في الاستسلام له تراودني من وقت إلى آخر.

في قبونا مرآة على شيء من القدم. ابتيعت من سوق السلع المستعملة في تطوان. لعلها كانت لعائلة يهودية قررت بين ليلة وضحاها الهجرة إلى إسرائيل. البائع هو الذي روى لي الحكاية. فقد المغرب سكانه اليهود وهذه خسارة كبرى. هجروا بلادهم وأرضهم وبيوتهم ليعيشوا حياتهم في دولة أساءت استقبالهم. حين أفكر في الأمر، أشعر بالحزن لأنّ جزءاً مهماً من ثقافتنا وتراثنا تمّ اقتطاعه.

لهذه الأسباب، أحب خاصة هذه المرآة. أنظر إليها وأتساءل كم من الذكريات اختزنت. لقد كانت شاهداً على العديد من المشاحنات والأعياد. أستجوبها وأتخيل ذاكرتها تندلق عند قدميّ. لديّ شعور بأن المرآة تبكي. لكنّ عينيّ هما المبتلتان بالدموع. لا أدري هل دموعي بسبب المرآة أم بسبب الاتصال الهاتفي. يتنقل نظري بين هذا وتلك وأشعر بتصاعد الرغبة في نفسي في تغطية جسدي بملاءة والنوم كأنّني في توسكانا، في الصيف، تحت شجرة تين ذات ظلال وارفة. آلام معدتي تدفعني إلى النهوض مرات عدة والذهاب إلى دورة المياه.

ظهري يؤلمني. أجد صعوبة في النهوض. أشعر برغبة في جولة على طول الكورنيش وتناول الشاي في الكونتيننتال Continental الذي لم يتبدّل فيه شيء. لعل ذكرياتي تمّحى بمجرد جلوسي على مقعد معوجّ الأرجل قبالة الميناء؟ لعلي ألمح في البعيد ظهور الصواري الثلاث للهولندي الطائر؟ لا، في النهاية سأستمع لجون كولتراين John Coltrane. معه أطير فيحملني نحو سماوات أكثر رفقاً من تلك التي وعدت بها الأديان. كولتراين جزء من هذه الكائنات الاستثنائية التي حطت في هذا العالم من أجل الترويح عن حزن الناس الذين لن يلبثوا أن يغادروا فجأة. لقد مات عام ١٩٦٧ في الحادية والأربعين من عمره.

يصادف أحياناً أن أشاهد من جديد فيلم Pandora [باندورا] الذي تؤدي فيه آفا غاردنر Ava Gardner دور امرأة الشؤم. فكلّ رجل يغرم بها يفقد حياته بطريقة مأسوية. في نهاية الفيلم، وقد تعبت من هذا المصير المرضيّ، غطست في البحر وسبحت نحو زورق قبطانه ليس سوى ذاك الذي تسميه الأسطورة "الهولندي الطائر". تقول الأسطورة: "يسمح له بأن يعيش حياة بشرية ستة أشهر كلّ سبع سنوات. ولن ترفع اللعنة إلا إن رضيت امرأة أن تموت من أجله بدافع الحب".

أحبّ التماهي مع هذا القبطان الغامض، أنا الذي لا أجيد السباحة وأشعر بخوف شديد من الماء. وهكذا تكون لدينا تخيلات بقدر ما نستطيع.

عادت مليكة في ساعة متأخرة من المساء. سمعتها تشكو كعادتها. لا أحد ينال حظوة في عينيها. كانت تقول إن ابنة أختها سمنت وإن خطيبها كان فتى على قدر من الوسامة. تحدثت عن المال. لم أفهم شيئاً مما كانت تقول. أنا بعيد، أنا في مكان آخر. نعم، في توسكانا، حيث الهواء منعش والنوم يتغلغل بكلّ رقة.

١٢

مليكة

أبصرت سامية النور عام ١٩٨٤، في أول أيام الربيع. ولدتها في المنزل. هانية، القابلة، صديقة للعائلة. جرى كلّ شيء على ما يرام. كان والدي قد اشترى الخروف احتفاء بالمولود. كان قد سجل في مفكرته يوم الولادة والساعة، ثم، كعادته، وزن الخروف وثمنه.

جمع عائلي مختصر (ما تعنيه والدتي بعبارة "الحلقة الأولى"). عدد من المقربين لم تتمّ دعوتهم. حاول مراد التفاوض مع والديّ. لم يكن ثمة مجال للبحث. تذرَّعا بضيق المساحة. عائلة زوجي أقامت احتفالاً آخر بعد ذلك بأيام ضمّ عدداً كبيراً من المدعوين. سمعت والدي يعلق بطريقة ساخرة: "مال كثير يجري تبديده. كان يجب إقناع صهرنا بأن يكون مقتصداً. لا نعرف ما تخبئه لنا الحياة".

أضاءت هذه الولادة البيت. تلقى مراد زيادة طفيفة على راتبه، ونزاهته لم تعد موضع نقاش. أما أنا، فقد توقفت عن دفعه إلى قبول مغلفات، حتى لو أنني في أعماق ذاتي كنت أجد موقفه مبالغاً في

صلابته. انشغالي الدائم بسامية دفعني إلى وضع خياطة القفطانات جانباً. كان ينقصنا المال. وكان مراد قد أدرك جيداً أننا لن نستطيع الاستمرار مع راتب واحد.

ذات يوم، جاء مقطب الجبين، غاضباً، ورمى على طاولة المطبخ مغلفاً. فهمت أن مقاومته انهزمت أمام الواقع. كان فيه أوراق مالية تعادل نصف الراتب الشهري الذي يتقاضاه. وقال لي: "هذا من أجل الطفلة، لزيارة طبيب الأطفال وأيضاً لشراء ثياب جميلة لها، وأشياء أخرى مستوردة من إسبانيا".

لم أقل شيئاً. وضعت المغلف في درج، واقترحت عليه تحضير قهوة له.

– لا، القهوة تحرمني النوم.

كان في حالة يرثى لها. هذا مخالف لتربيته ومبادئه. كان يشعر بالعار.

– لن أستطيع بعد الآن أن أنظر إلى نفسي في المرآة.

– بسبب بضع أوراق مالية؟ أقنع نفسك بأنك تحصّل ما لا تعطيه الدولة لك. نعم، يا صديقي، الفساد نوع من التعويض. الدولة تدفع رواتب مزرية وتعتمد على تقديمات من يملكون المال لإقامة التوازن. إذن، ليس عليك الشعور بالعار. لم تعمل عمل سوء. البلاد هي كذلك. هي التي تحرّض على الفساد وتشجعه. حتى أنني أعتقد أن الملك الحسن الثاني قالها ذات يوم في أحد خطاباته بالعربية المحكية. هو نفسه يقدّم مغلفات إلى وزرائه، كمن يقول للواحد منهم: "هذا من أجل شراء هدايا لزوجتك وأطفالك". شاهدته مرةً

على التلفزيون يشير إلى رجل بلباس أبيض، فقدّم مغلفاً إلى أحد الوزراء، هو بدوره بالجلابية البيضاء. أقول لك وأكرّر: الدولة هي التي شرّعت الفساد وعمّمته. تخيّل قاضياً لا يكاد يتقاضى ما يسدّ به رمقه لن يسعى إلى استغلال مركزه. طبيعي أليس كذلك؟ ألا تجد ذلك طبيعياً؟

– لا، ليس هذا بالطبيعي. تعلمين جيداً أن العفونة تولّد العفونة. لذا أشعر بأنني قذر.

– اذهب واغتسل، وخذ دوشاً جيداً ريثما أحضّر لك طبقك المفضل.

أمضى مراد وقتاً يقرأ **القرآن** مساء. أمر غريب. لا بد أنه يشعر بأنه ليس في وضع جيد. لعله يسعى إلى طلب الصفح لأنه التحق بقافلة الفاسدين في المغرب، وأعدادهم غفيرة، فما من قطاع إلا ويسوده الفساد، حتى في التعليم. هناك بالطبع مستويات عدّة. مراد كان في المستوى المتوسط، ذاك الذي لا يصنّف ثقيلاً. لكن مع الوقت والعادة، لم أكن أشكّ يوماً في أنه سيبلغ المستوى المتقدم الذي يتيح لنا أخيراً شراء بيت كبير وسيارة جميلة ومجوهرات وثياب جميلة. لم أكن أفقد الأمل في رؤيته في المرتبة المطلوبة سريعاً. كان عليه بالضبط أن يتغلب على تأنيب الضمير هذا الذي ابتلي به طوال الوقت. كان عالقاً وسط عذاباته التي تتسبب في بؤسه. لكنّ زملاءه لم يكونوا يرونه هكذا. حتى أنهم أصيبوا بالذهول بسبب ما أسموه "مهارته". كان قد احتفظ بالفعل بآثار من نزاهته الكبيرة. فلم يكن

يجرؤ أحد على التفكير في أنه يمكن شراؤه.

بعد قراءة القرآن، توضأ وصلى. كان في العادة يصلي فقط في رمضان. كان يحب التقيد حرفياً بالصوم والاستغراق في الذات في الصلوات والتأملات. رمضان، في العادة، هو في نظرنا شهر في ذاته غير سائر الشهور. ندخله محنيّي الرؤوس إذ يذكّرنا بأننا ننتمي إلى الله وبأننا نذرنا له أنفسنا بالكامل. فلا جدال، ولا مضايقات، ولا صراخ.

أحب الليلة السابعة والعشرين من هذا الشهر، حيث نراقب فيها النجوم، وفي اعتقادنا أن الله يقرر مصير كل إنسان. إنها شعائر تثير فينا الطمأنينة وتمدّنا بخير عميم.

لقد تحول مراد إلى الدين لأنه استسلم للضغوط ليصبح كالآخرين وينسى مبادئه. لم يعد حبة الرمل الشهيرة. لقد أصبح شخصاً عادياً. تبدّل، وما كان ذلك ليزعجني. هو، في النهاية، لم يرتكب سوءاً.

بعد صلاته، كان يحمل سامية بين ذراعيه ويروي لها حكاية. يحدثها كأنها تفهم ما يقول. وكانت سامية صامتة ويداها الصغيرتان متشبثتان بقميص والدها.

بعد أيام تركت سامية مع والدتي وذهبت مع شقيقتي للتبضع في سبتة. رحلة طويلة ومتاعب على الجمارك الإسبانية. كنت أريد شراء ثياب لابنتي والاستفادة من التنزيلات لأشتري لنفسي فستاناً جميلاً.

ما أحبه في سبتة هو هذا الجو من الحرية. النساء لهنّ ملء الحرية في التنقل حيث يشأن، وشرب الخمرة في مقاهي الأرصفة، وتدخين السجائر وسط شعور بالسعادة. أزواج الصبايا والشباب يتنزهون واليد

باليد. بعضهم يتوقفون ويتبادلون القبل الطويلة. لا أحد يزعجهم، ولا أحد يوجه إليهم الإهانات وبالطبع ما من عنصر شرطة يسألهم إن كانوا مرتبطين بزواج أم لا.

أثناء هذه الرحلة فاجأت مرات عدة في شارع المدينة ابنة عم زوجي مع خطيبها يتعانقان. لم يعرفا كيف يعتذران. راحا يرددان كلمات متلعثمة وخدودهما حمراء خجلاً. انتحت بي ناديا جانباً ورجتني ألا أذكر شيئاً لوالديها ولا لأيّ أحد آخر. وعدتها بالاحتفاظ بهذا السرّ لنفسي وتمنيت لهما إقامة طيبة.

بالنظر إلى الحياة في سبتة، لاحظت كم كنا محاصرين وسجناء، وأنا خاصة. يمنعنا الدين أن نكون على سجيتنا. نحن خاضعون للإسلام ونطيع تعاليمه ووصاياه. هكذا تربّيت.

لدى عودتي استعدت ابنتي وأخبرت مراد عن لقائي مع ابنة عمه. وجد ذلك طبيعياً. لفتّ نظره إلى أننا، أنا وهو، لم نتبادل قطّ القبل علناً. فأجابني: "طبيعيّ". أدركت أن ذلك لا يثير اهتمامه وأنه لا بدّ من الانتقال إلى موضوع آخر. "طبيعيّ!"

كانت لدي رغبة في ممارسة الحب، وإغماض عينيّ وتخيل أنفسنا في سبتة أحراراً بين أحرار. لكن حالة الانزعاج التي كان فيها مراد محبطة. لم يستطع بعدُ أن يستوعب أنه قد استسلم للفساد. قلت في نفسي إنه سيعتاد ذلك، بمرور الوقت، بل سيجد متعة فيه. ستكون لديه خططه وسنعيش في راحة ورفاهية. لا، ليس في البذخ، بل في شيء من الرفاهية التي نحصل عليها من القليل من المال غير الملحوظ.

١٣

سامية

٢٠ أكتوبر ٢٠٠٠

البيت كبير. كبير جداً. غرفتي في الطبقة الأولى، صغيرة وتكفيني. غرفة شقيقيّ أوسع. لكنني أحب غرفتي الصغيرة. إنها ملاذي، عالمي، مرجي، ميداني من دون خيول، سمائي، حديقتي. حين أحبس نفسي فيها، أنسحب من العالم وأشعر بأنني في أفضل حال. أبقى مستكينة أو أسافر. يزول عني الشعور بالحضور الثقيل لوالديّ.

زيّنتها بقليل من الأشياء. صورة مغيب شمس في بلاد بعيدة، في بورما، على ما أظن. صورة لي حين كنت في الثانية. صورة لباربارا وأخرى لأم كلثوم. نجمتان أعشقهما وأستمع غالباً لأغانيهما، وخصوصاً في المساء حين يجافيني النوم. الأغنية من أغاني أم كلثوم تدوم أكثر من ساعة. أستسلم لهدهدة الإيقاعات البطيئة والملتاعة. في الغالب، أنام قبل انتهاء الأغنية. باربارا، معلمتنا للغة الفرنسية،

السيدة لوكورتييه، هي التي عرفتني إليها، كما عرّفتني إلى إيليوار وبريفير Prévert. كانت تعيرني كتبهما. فكنت أنسخ القصائد ثم أعيد إليها الكتب. قدمت إليّ أسطوانة تضم تقريباً جميع أغاني باربارا. أحبها حين تتطرق إلى الوحدة والملل. فأنا بدوري جعلتني الوحدة أمضي ليالي بكاملها من دون أن يغمض لي جفن، وصباحات شاحبة وسماء صيفية ملبدة بغيوم الشتاء. لكم تمنيت لو أنني تعرفت إليها! ذات يوم أسمعتنا السيدة لوكورتييه في الصف، L'aigle noir [النسر الأسود] وشرحتها لنا. كان الموضوع عن الاغتصاب وسفاح القربى. لم أكن أعرف هذه الكلمة. فذكرت لنا أن قاعدة المجتمع هي بالتحديد تحريم العلاقات الجنسية بين الأولاد وآبائهم. أُصبت بالصدمة. تخيفني هذه الأغنية. هي أغنية مصورة وقدمت خاصة بروح المغنية. منذ ذلك الحين كرهت الطيور الجارحة وتحدثت إلى والدي عن سفاح القربى، فرفع ذراعيه في الهواء وقال لي: "حمانا الله يا بنيّتي من هذا العار! لحسن الحظ أن المدرسة تحذركم. إنه لأمر جيّد يا ابنتي!"

أرتب سريري، أغسل ملابسي، أنظف غرفتي، أفتح النافذة لتهويتها. وأحياناً أمضي وقتاً في النظر إلى المارة. أحب تخيل حياتهم، وعذاباتهم، ولحظات سعادتهم أو ضيقهم. شاهدت ذات يوم رجلاً، هو بلا شك فلاح، يضرب امرأة، زوجته أو ابنته. كانت فتية جداً، وهو أكبر منها سناً بكثير. كان يسدّد إليها الضربات في جميع أنحاء جسمها ويوجه إليها الكلمات المهينة فيصفها بالعاهرة، وابنة الزنا، وابنة الشيطان. كان الناس يتوقفون ولا يحاولون التدخل.

صحت، فلم يبالِ أحد بصيحتي. أخيراً أمسكت المرأة باليد التي ضربتها وقبّلتها. كان عليها أن تطلب الصفح.

حادثة أخرى: أمّ كانت تصفع ابنها الصغير. هرب الفتى فبدأت الأم البكاء. أحب أيضاً أن أتتبع بنظري عجوزاً تخرج للمشي وترافقها امرأة يبدو أنها خادمتها. تمشي ببطء. تتوقف وتنظر إلى السماء.

أنظر. هناك دوماً شيء ما يحدث. ذات يوم رفع بائع سردين صوته في الغناء ممتدحاً صفات سمكاته. نزلت النساء واشترين السمك. أتذكّر أنني رأيته يغادر وهو يرقص لأنه باع كلّ شيء. في ذلك اليوم، تملكتني رغبة شديدة في تناول السردين بالطريقة التي تحضّرها أمي مع التوابل والكزبرة الطازجة. إنها طبقي المفضل.

سنّان السكاكين سيئ الحظ هذا الصباح. يعلن قدومه بالعزف على الهارمونيكا، وهو تقليد قديم من الحقبة الإسبانية. لكن لم يكن لدى أحد سكاكين لسنّها.

هناك أيضاً بائع التحف الصينية. ساعات، سجادات صلاة، شالات من مواد اصطناعية. يدفع عربته بصعوبة وهو يطلق صيحات غير مفهومة.

يقع منزلنا في منطقة سكنية بين وسط المدينة وطريق الجبل القديم. وبمرور الوقت، تحولت إلى منطقة شديدة الازدحام. جارنا في الجهة اليسرى طبيب وزوجته صيدلانية. هما كتومان. وجارنا في الجهة اليمنى قاضٍ سُجن أخيراً بتهمة الفساد. لحسن الحظ أن نافذتي لا تطلّ على الطريق، من ناحية الجبل القديم، التي غالباً ما تكون مزدحمة بالشاحنات. جميع السائقين هنا يطلقون

أبواق سياراتهم. ما إن يتحول ضوء الإشارة إلى الأخضر، حتى يطلقوا الأبواق كأن الشخص الذي أمامهم نائم ويجب إيقاظه. وإلى الأسفل قليلاً، تقريباً عند مدخل حيّ درادب، يقوم محل بقّالي المفضل. يبيع كلّ شيء. وكلّ مرة يقدم إليّ هدية صغيرة وهو يقول لي: "اعتني جيداً بنفسك".

ذات يوم، لدى عودتي من الثانوية، دخلت غرفتي وأطلقت صيحة أيقظت أمي التي كانت في قيلولتها. هرعت إليّ بشعرها الأشعث وهي تصرخ: "ماذا هناك، لماذا تصيحين؟"

كانت قد انتزعت صور مغنيتيّ المفضلتين واستبدلت بهما ساعة حائط من البلاستيك تمثل مكة. فلدى موعد كلّ صلاة يلتمع ضوء في الساعة وينطلق صوت مؤذن من مسجل فيها. جهاز شديد القبح من صناعة الصين.مكتبة سُر مَن قرأ

تناولتها وقدمتها إلى أمي وقلت لها إنّ من الأفضل أن تكون في غرفتها. فدار نقاش سخيف عن الدين، عن الله، عن الإيمان، عن الجنة والجحيم... لم أكن أريد الدخول في هذا النوع من الجدال مع أمي التي هي مؤمنة ساذجة. هذا شأنها ولا يعنيني.

اشتكت مساء إلى والدي الذي ظل صامتاً. أعدت باربارا وأم كلثوم إلى مكانهما. فعادت غرفتي عالمي المقفل، بستاني، سهلي، غابتي. ولم تعد والدتي تحاول أبداً تزيينها كما ترغب.

كم أحب أن آتي بالبحر إلى هنا، لكنني أعلم أن ذلك مستحيل. لحسن الحظ، يكفي أن أنحدر في بولفار الحسن الثاني كي أصل

إلى الخليج، وأجلس على مقعد وأنظر إلى البحر. سأفعل ذلك يوماً، لكن ليس وحدي.

أحن إلى الدُّوار والنار التي تشعلها الكلمات
أحن إلى الشعور بأن أكون في أفكار شاعر
موسيقي، رائد فضاء، قبطان سفينة
أنا ورقة لوّحتها شمس الخريف الناعمة
أنا الحب الذي ينتظر شجرة البرتقال والغناء
الذي يبتلع ألمي وصمتي
أحن إلى الضوء المنبثق من القلوب
الذي يعيّن لي الطريق
الوحيد الذي أبحث عنه

١٤

مليكة

عرفت دوماً أنه يخونني. فالمرأة، بغض النظر عن مشاعرها، تلاحظ سريعاً علامات الخيانة الزوجية. كان في إمكاني إثارة فضيحة، والتهديد بهجره، وفضحه أمام الناس، وتمزيق ثيابه المفضلة، ورمي كتبه بشروحها في سلة المهملات. لا، تظاهرت بأنني لا أشكّ في شيء، ولا أعلم شيئاً. فضلت ألا أفعل شيئاً. هو لم يعد يرغب فيّ. ولا أنا بدوري. كنا متعادلين سوى أنني من جهتي لم أتخذ لنفسي عشيقاً. هذا لا يحدث في محيطنا. حكاية حليمة، صديقة والدتي المقربة، التي فاجأها زوجها مع عشيقها في سريرهما الزوجي، أثرت فيّ تأثيراً كبيراً. كانت المرة الأولى التي تحدث فيها مثل هذه الأشياء في محيطنا. والد حليمة لديه أعمال مشتركة مع والدي. عائلتانا كانتا على علاقة وثيقة. حتى كان اليوم الذي جرت فيه الحادثة، فشعرت والدتي باضطراب شديد. لم يكن الأمر، في نظرها، مجرد خيانة، بل رعب حقيقي جعلها في حالة من خيبة أمل ودمار مطلقين. انتهزت

الفرصة لتلقي عليّ الدرس: "عندنا، عندما نتزوج، يكون زواجنا مدى الحياة، مهما تكن الظروف".

إذن، إخلاص حتى النهاية، إخلاص غبيّ حتى لو أنّ مراد أثار غضبي إلى أقصى درجاته. كنت أعرف من مزاجه المرح أنه اجتمع بصديقاته، ومن اهتماماته الصغيرة الغامضة، ومن العطر الذي يضيفه في اللحظة الأخيرة ليطمس ما علق عليه من عطر العاهرات. لم أكن أوجّه إليه أي ملاحظة. عقابي: حرمانه العشاء. كنت أعرف أنه لا يحتمل النوم من دون طعام. لا يهمّ. من ضاجع لا يستحق الطعام أيضاً! هكذا. لا نقاش. لا تفاوض. أُخرج الأطعمة من الثلاجة وأضعها في خزانة وأقفل عليها بالمفتاح. كان يتذمر، لكنه كان يعلم أن لا مصلحة له في الاحتجاج، لأنه كان يعلم نوع الأجوبة التي لن أتردّد في قذفه بها.

عندما تكون قد تلقيت تربية تقليدية، يصبح من الصعب عليك الخروج من الصف ومعاشرة أول من تصادفه. شرفي، كما شرف عائلتي، لا يمكن التشكيك فيه، وتلويثه بأخبار المضاجعات في حين أن حياتي بكاملها كانت مكرّسة لتعليم أولادي وسلام منزلي. كان في إمكاني أن أطلب منه أن يكون متحفظاً وألا يجعلنا عرضة للعار. الناس في هذه المدينة معروفون بتندّرهم على أسرار العائلات. هم مفترون ويفتخرون بذلك. المقاهي ملأى بهؤلاء الرجال البطّالين الذين يروون ثرثرات ملفّقة في الغالب. لم أرد أن أكون هدفاً لسخريتهم لأيّ سبب كان. كنت أخشى أن يُشاهد مراد مع نساء يفضح مظهرهن المهنة التي يمارسنها.

التكتم كان دوماً شغل والدي الشاغل. أجّر أحد الإسبانيين محلاً في المدينة. كان يظن أن هذا المستأجر سيستخدمه لخزن بضائع جاء بها من جبل طارق. في نهاية الشهر، حين قصده لقبض الإيجار، وجد نفسه أمام بارٍ لا يقدّم سوى الكحول. ولكون والدي مسلماً تقياً، كان من غير الوارد لديه أن يدخل إلى هذا المكان الذي لا يدخله سوى السكيرين والرعاع. فوقف في الجهة المقابلة من الشارع وانتظر مجيء الإسباني الذي رفض المجيء. فغادر والدي من دون قبض الإيجار. وذات يوم تجرأ على الدخول لقبض ماله، وابتداء من اليوم التالي راح الجيران في المقهى يغيظونه: "إذاً يا حاج! نتناول من وقت إلى آخر كأس جيريز[1]؟ انتبه! الخمرة ليست محرمة تحريما كلياً في **القرآن**. فقد جاء فيه: 'لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى'".

حاول أبي جاهداً شرح الظروف التي دفعته إلى دخول البار لكن الجميع رفضوا الاستماع له.

لعلّ من الواجب عليّ، ربما، أن أطلب من مراد أن يكون أكثر حرصاً. خيانته لي لن تملأني فرحاً، لكن بسبب رعونته قد أُصبح هدفاً لسخرية أبناء طنجة، وهذا ليس في الوارد.

تقبلت خيانته منذ زمن بعيد. ليس لأنني من دون كرامة أو كبرياء أو عزة نفس، بل لأنّ خيانته لا تعدّ شيئاً أمام ما حلّ بنا. هو يسمّي "فاجعة" ما عشناه. أوضح له أننا لسنا في مسرح. حين تكون منسحقاً انسحاقاً تاماً، يصبح الباقي، حتماً، غير ذي قيمة، ثانوياً،

١ نوع من الخمرة ينسب إلى منطقة خيريز Jerez الإسبانية.

شيئاً عابراً. لا، لا أسامحه، ولا أعفيه إطلاقاً، لكن في أعماقي لم يعد شيء يؤثر فيّ. لم يعد شيء لا أستطيع احتماله. أنا الآن ميتة، ووحده ظلي الذي نجا. ظلّ كثيف وثقيل يرهقني. هو لم يمت. لا، لقد نجا. تضرّع إلى القدر، إلى الله ومشيئته. ثم تقبّل مصيره. أنا لن أتقبّل.

١٥

سامية

مكتبة
t.me/soramnqraa

٢٥ أكتوبر ٢٠٠٠

أحيا في عزلة صغيرة حيث انتهيت إلى تعيين اتجاهاتي، فلا أتوقع شيئاً ولا أنتظر أحداً. شعرت، الأسبوع الماضي، بألم جديد عليّ يعلن بدء دورتي الشهرية. كنت أعلم أنها لن تتأخر في المجيء. لم أحدّث أمي المنشغلة كثيراً في تلميع أثاث المنزل عن الموضوع. إنها مهووسة نظافة. تمضي وقتها في مطاردة الغبار وترتيب كلّ شيء كما لو كنا نعيش في قصر. أقفلت غرفتي بالمفتاح لمنعها من التدخل في شؤوني.

هذا الصباح تغمرني ذكرى دورتي الشهرية الأولى. سأتمّ عامي الثاني عشر. حدوث هذه الدورة ترافق مع اكتئاب طفيف. كنت أودّ أن أحدث عنها ابنة عمي التي عرفَتها العام الماضي، لكنها غارقة الآن في العشق ولن تلقي بالاً لأحد.

وحده والدي كان قد لاحظ شحوبي فسألني هل أنا مريضة. لم يكن بالإمكان، طبعاً، التحدث معه عن هذه الأشياء الحميمة. قلت له إنني في حاجة إلى القليل من المال من أجل رحلة تنظمها المدرسة. فأعطاني ورقة مئة درهم التي كانت مبلغاً ضخماً في نظري. وضعت بين فخذيّ رقعة صغيرة من القماش المصّاص وقصدت الصيدلية لشراء ما يلزم لامتصاص الدم. لخجلي وتردّدي، لم أعرف كيف أصوغ طلبي. من المستحيل أن أطلب ذلك من بائع ذكر. كان في الصيدلية امرأة واحدة، عاملة الصندوق. قلت لها بصوت منخفض: "أريد شراء فوط صحية لو سمحت...". فأجابتني بصوت مرتفع: "إن كانت من أجل والدتك، فأنت في حاجة إلى سدادات قطنية...". تلعثمت: "لا، هي لي".

– كان عليك أن تقولي ذلك، من دون خجل، هذا أمر طبيعي يا ابنتي!

أعطتني علبة وغمزت لي بعينها في إشارة تواطؤ كأنها تقول لي: "أهلاً بك في عالم النساء".

عادة من شأن أمي أن تؤمّن لي الفوط المخصصة لفتاة عذراء. فضّلت ألا أقول لها شيئاً وأعترف بأنني كنت سعيدة بتدبر أمري جيداً.

بالمال المتبقي، قصدت مكتبة الأعمدة، حيث استقبلتني عجوز فاتنة بضحكة واسعة كما لو كان بيننا معرفة سابقة.

– بماذا أخدمك يا آنسة؟

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها أحداً يناديني بهذا اللقب.

فكنت شديدة التأثر. وعبّر خجلي عن نفسه بنفحة من الحرّ.

– أريد كتاب سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir الأخير الذي سمعت الحديث عنه في الراديو، نهاية هذا الأسبوع. ذاك الذي تدافع فيه عن قضية المرأة.

– حظك جيد، فقد تسلمته للتوّ بطبعة كتاب الجَيب. لا تزالين صغيرة على قراءة *Le deuxième sexe* [**الجنس الآخر**].

– هو لخالتي. أنا أؤدي لها خدمة. هي مطلّقة ولا وقت لديها لزيارة المكتبة، لأنها تتأخر في عملها.

لدى مغادرتي، أهدتني السيدة العجوز كتاب *Le Petit Prince* [**الأمير الصغير**]. شكرتها ولم أقل لها إنني سبق وقرأته. لكن ذلك أفرحني.

أعشق القراءة. حين يكون أمامي كتاب جديد، أتصفحه أولاً، ثم أتنشق رائحة ورقه. أحب هذه الرائحة التي لا وجود لها في مكان آخر. وأطيل متعتي عبر التفكير في فرحة الانسحاب من العالم والغوص في عالم آخر. احتفيت بكتاب سيمون دي بوفوار. غلفته بالبلاستيك الشفاف، وكتبت على صفحته الأولى تاريخ الحصول عليه ووقّعته كأنه مستند رسمي. هذا الكتاب كان مالي، هدفي، حلمي. قرأته ببطء والمعجم بجانبي.

على مدى شهر بكامله، كنت على موعد كلّ مساء مع سيمون. كنت أسميها سيمون لأنها أصبحت صديقة. ليست فرداً من العائلة، بل شخص أليف ألتقيه بمتعة قصوى. خبأت الكتاب في خزانة ملابسي. فلو أنّ أمي عثرت عليه، لجاء ردّ فعلها سيئاً للغاية لمجرد أن

تقرأ على الغلاف كلمة "جنس". وستظن أنه واحد من تلك الكتب التي تشجع على الرذيلة. أما بالنسبة إلى والدي، فهو لا يفتش إطلاقاً في أشيائي.

كنت أقرأ وأدوّن الملاحظات. وأفكر من جديد في خالتي الأخرى التي كانت متزوجة برجل طيب لم تكن تحبّه. مصيرها كان رهيباً. موتها المبكر خضّ العائلة كلها بعنف ولم يسعَ أحد إلى معرفة السبب في وصول هذه المرأة إلى هذا الحدّ ولا لماذا. الآن أنا أعرف. لكم تمنّيت لو أنني تمكنت من الحديث معها وقراءة مقاطع لها من هذا الكتاب الذي أضمّه بشدّة إلى صدري كدمية! كنت أفكر: والقول إنه كتب منذ زمن بعيد.

فصل الدورة الشهرية واكتشاف هذا الكتاب بدّلا حياتي. كانت والدتي بعيدة عن فهم ما أعانيه. والدي كان لطيفاً، وغالباً ما كان يمتدحني ويشتري لي الكتب. كان قد أعطاني *Les Misérables* [**البؤساء**] لفيكتور هوغو Victor Hugo. وضعته جانباً لأقرأه حالما أنهي قراءة *Le deuxième sexe*.

استبدّت بي رغبة في الكتابة كأنها أمر لا مفرّ منه، وملحّ. أن أكتب! لكن لماذا؟ للحديث عن حياتي؟ وما نفع ذلك؟ دفتر يومياتي حافل بهذه الحياة التي أجرّها ككرة الحديد في أقدام المحكومين.

في المدرسة، كنا نتعلم الأشعار. لكن المعلم لم يكن يكلف نفسه بذل جهد كبير ليحبّب إلينا ما كنا نردّده. استعرت من المكتبة الفرنسية في شارع فاس كتاب *Paroles* [كلمات] لجاك بريفير. حفظت منه عن ظهر قلب مجموعة قصائد. كانت سهلة ومبهجة. شعر بسيط يروي

الحياة. بالنسبة إليّ، كان أكثر من اكتشاف، كان حضّاً على الكتابة. شكراً سيد بريفير. بفضلك أشعر بأنني حرّة في الكتابة والغناء.

على أجفان الصباح المثقلة
دوّنت مقاطع سقطت من ليلي
تقول لي إنني لا أحب شيئاً
وحده الشعر
يمنحني الخبز والعسل
لا أعرف أين أذهب
وحتى لو عرفت
فما الفائدة؟

١٦

مليكة

حين أتمّت سامية عامها الأول، اعتراني شعور عميق بالخسارة. فالفرح والسلام اللذان شعرت بهما بعد ولادتها تلاشيا. كنت مقتنعة بأنها سترحل، وستضيع مني. كنت أنظر إليها في سريرها تبتسم وتضحك ويراودني إحساس أنها سترحل قبل موعدها. وتحوّل هذا الشعور، مع الوقت، إلى يقين استحوذ عليّ. فنمَت لديّ حينئذ لوعة مريرة لا أساس منطقياً لها. تحدثت عن الموضوع ذات يوم مع مراد، فنعتني بالمجنونة.

مراد لا يؤمن إلا بالعقل. فبغض النظر عن ذكائه هو لا يؤمن إلا بما يراه ويلمسه ويتحقق منه. أكثر شجاراتنا التي لا تنسى تدور دوماً حول العين الشريرة. فكان يقول إنها "هراء"، و"وروايات نساء ساذجات"، و"حماقات موروثة من القرون الوسطى"...

ذات يوم، وبينما نحن في بيتنا مطمئنون، جاءت الخالة زبيدة لزيارتنا، من دون موعد سابق. كنت أرضع سامية. مدّت ذراعيها

لأناولها الطفلة. تردّدت. قالت لي: "لا تخافي، سأقرأ فقط بضع آيات من **القرآن الكريم**؛ ستعود عليها بالخير". حملتها بين ذراعيها فبدأت سامية مباشرة الصراخ. كان صراخاً حاداً كأنّ أحداً ما وخزها بأداة حادة. أعادتها إليّ. حين غادرت، أصيبت سامية بإسهال أعقبته حرارة مرتفعة. العلاقة بين الحدثين كانت واضحة في نظري، لكن مراد رفض الاعتراف بها. دام مرض ابنتنا المفاجئ أكثر من أسبوع، ولم يسبق لها أن عانت من المرض.

لكن أكثر ما كان يقلقني هو هذا الهوس الذي تملكني بمشاهدتها تموت. زوجي لم يكن يشاركني هذا الألم. كنا لا نزال زوجين شابين حين بدأت حياتنا تحفل بالنزاعات الصغيرة. يزعجني، فأعارضه. يصيح في وجهي فأبادله بالمثل. كنا نتباعد واحدنا عن الآخر، حتى لو أن حياتنا بدأت تشهد بعض التحسن بفضل المغلفات التي كان يأتي بها كل مرّة يسمح لنفسه فيها أن يرضخ للفساد. كان يقول إنني الفاسدة في هذه المسألة لا هو. فهو مجرّد وسيط بين المفسِد وبيني، أنا "المتعطشة"، كما كان يقول، للمال. كان يرمي عليّ تأنيب ضميره، وعليّ أن أتدبر نفسي في كل هذا.

أعتقد أنه بدأ خيانتي منذ تلك المدة، مباشرة قبل الانتقال إلى القبو. ذات مساء قدّم إليّ باقة زهور، وهو ما لم يفعله منذ زمن طويل. قلت لنفسي: "لا بدّ أنه يسعى إلى أن أغفر له أمراً ما". سحبته إلى غرفة النوم وبدأت مداعبته. كان عضوه مرتخياً ولا يستجيب لمحاولاتي. بقايا عطر نسائي كانت لا تزال عالقة على عنقه أثارت اشمئزازي.

تلك الليلة كانت المرة الأولى التي أنعته فيها بالعاجز جنسياً. كان لا يزال مع ذلك شاباً وفي صحة جيدة. إن كان لم يستطع الانتصاب معي، فلأنه أمضى بعد الظهر بين ذراعي امرأة أخرى. لم تعد لديه القدرة ولا الطاقة، وفوق كل ذلك لم تعد لديه الرغبة.

كان بإمكاني أن أثير فضيحة، لكنني كنت أفكر في ابنتي وأرفض تشويشها بصراخي. وهكذا، بعد عامين تقريباً على الزواج، بدأ زوجي يسعى وراء متعته في مكان آخر. تحدثت إلى أمي التي أعادت على مسامعي نصيحتها المعهودة: أثقليه. لكن لإنجاب المزيد من الأطفال يجب أن ينام معي.

بدأت أشكّ في أنوثتي. كنت أنظر في المرآة فأجدني راضية عن نفسي. ربما لست مثيرة كممثلات السينما، لكن كان لديّ بعض المميزات. كيف العمل لاستعادته؟ كيف العمل لإعادة الرغبة، رغبته فيّ، لأنني، من ناحيتي، كنت لا أزال أحبه رغم كلّ شيء وكثيراً ما كنت أرغب فيه.

خطرت لي فكرة تمضية عطلة نهاية أسبوع طويلة في بارادور[1] سبتة. والدتي سترعى سامية ونذهب نحن في رحلة بمفردنا. راقته الفكرة. فقصدت الحمام، حيث تولت خدوج تدليكي وانتزاع الشعر من جسدي. كنت منتعشة تماماً وجاهزة لإثارة رغبة زوجي فيّ.

خلال تلك الرحلة حملت بآدم.

---

١ Parador في إسبانيا والبلدان الناطقة بالإسبانية هو فندق فخم أقيم في معلم تاريخي، كقصر قديم أو دير، أو يشرف على موقع أثري.

١٧

مراد

لست أدري ما جرى، لكن بعد مرور عام على ولادة سامية، أصبحت مليكة رقيقة ولطيفة. حدث شيء ما لا أستطيع تحديده. حتى لكأنّ امرأة أخرى احتلت جسدها. أصبحت يقظة ومراعية، ولم تعد مهملة مظهرها. أخبرتني بأنها حبلى، فسررت. كانت أعمالي مزدهرة، ولم يكن أحد يشكّ فيّ. المغلفات كانت تصل وتتراكم ومليكة تحفظها في خزنة أطلقتُ عليها اسم "تأنيب ضمير". أما هي، فسمتها "فساد رائع".

كان الفساد قد تحول إدماناً. في السابق، كنت أكافحه. اليوم أنتظره، وأخطّط لمشاريع تبعاً للملفات المكدسة على مكتبي. كنت جزءاً أساسياً من الجهاز الإداري. فما من ملف يخرج من القسم من دون أن يحمل توقيعي. وكان راتبي يتضاعف أحياناً ثلاث مرات. لم أكن أحب أغسطس، الشهر الذي تقفل فيه الدوائر، ما يجعل

الإجازة السنوية في نظري أشبه ببقرة هزيلة. لم أستطع توفير المال، فبين زوجتي والولدين، كان من المستحيل النجاح في المهمة. صار المتمِّم غير الرسمي ولا القانوني ولا الأخلاقي ضرورة. فمن ناحية، كان هناك الواقع الضيق، القاسي، المثير للشفقة، ومن ناحية أخرى العالم المبهج بفضل جمع المال من جيوب المواطنين. حين كنت لا أزال أقاوم، شرح لي أحد المقاولين طريقة العمل معه: "الأمر بسيط، تدرس ملفي أولاً، فأدسّ لك مغلفاً. من جهة، أباشر العمل في مشاريعي وأكسب الوقت أي المال، ومن جهة مقابلة تحصل على مكمّل لراتبك الزهيد، وتحسّن مستوى معيشتك. لم نسرق شيئاً من إنسان. أنا طوعاً أكافئ مساعدتك بالمال الذي أنت في حاجة إليه. ليس للأخلاق شأن هنا. ننساها. نحن راشدون وموافقون. الكل يربح. لكن، ما لا أحتمله هو طلب المال من فقير ليست لديه الإمكانات لرشوتك. هنا، يجب أن تكون إنسانياً، ونظرتك يجب أن تكون عادلة".

لم أكن عادلاً ولا أخلاقياً. فقد انخرطت في هذا الوضع بكلّ سرور متنكراً لكلّ ما علمني إياه والداي. لم يعد والدي على قيد الحياة ليلقي عليّ دروسه، أما والدتي، فكانت في مكان آخر، في نوع من غياب فقدت فيه جزءاً كبيراً من ذاكرتها. حين كنت أزورها، كانت تتعرف إليّ مرة وتنكرني أخرى. وكان ذلك يؤلمني، فأحاول مؤازرتها برواية حكايات لها كأنها طفل. كانت تحب كثيراً اللحظات التي أكلمها فيها وأنا ممسك بيديها. لم يكن بإمكانها تخيّل ما صار عليه ابنها. لم تكن تحب عائلة زوجتي لكنها لم تكن تقول شيئاً،

لعلمها أن ذلك لن يترك أيّ تأثير.

كانت والدتي تتحدّر من عائلة كبيرة في فاس، عائلة من الأرستقراطيين لا تملك المال لكنها تملك السخاء والأبواب المفتوحة. لم تكن تحسن القراءة ولا الكتابة، لكن كانت لديها ثقافتها ومعتقداتها وإيمانها، وخصوصاً قيمها التي ورثتها من والديها. معها كلّ شيء سهل، فقد كانت لديها موهبة تبسيط ما كان يبدو معقداً. وكانت تتمتع بمنطق حاسم وتواضع يدفع كل من يتوجه إليها بالكلام إلى خفض بصره.

بعد انقضاء بضعة أشهر على زواجنا، وبعدما تعرفت إلى مليكة وعائلتها من قرب، انتحت بي جانباً وهمست في أذني: "هؤلاء بالتأكيد ناس طيبون، لكنني أشعر أنهم لا يناسبوننا ولا نحن نناسبهم. كن حذراً، فهؤلاء قوم يحلّون المال في مرتبة فوق مرتبة القلب. لا أحب ذلك. المال ليس سوى غبار الحياة. غبار الحياة الرديء".

بتّ الآن من يتلوّث بهذا الغبار. جُبني يذهلني. أحد زملائي في المكتب سافر إلى مكة للحج، من أجل "غسل خطاياه والعودة نظيفاً كما ولدته أمه"، كما قال. كان ساذجاً جداً أو كثير الادعاء. دخل الوظيفة قبلي بعشر سنوات على الأقلّ. وقد تراكمت خطاياه إلى حدّ اكتسابه سمنة مفرطة. ذات يوم نعته أحدهم بـ"كرش الشر". فمرّر يديه الضخمتين على بطنه البارز، وانفجر بالضحك. الشر، الخير، أضحيا مصطلحين غريبين عن عالمه.

آلاف الأشخاص على شاكلته يتوافدون كلّ عام إلى مكة والمدينة على أمل أن يجعلوا ألاعيبهم أقلّ ضرراً وانكشافاً. الدين في نظر هذه

الكواسر كيّ بالبخار. غسيل على الناشف. يكفي أن يجري الواحد منهم رحلة ذهاب وإياب بين الصفا والمروة، والدوران سبع مرات حول الكعبة، والتضحية بشاة في منى، ثم رجم الشيطان بالحجارة وسط تدافع شديد يفقد بعضهم فيه حياتهم، وها أنت حاج بروح مغسولة، وجسد مسمّن، وعقل جاهز أكثر فأكثر لتحويل الحق خدمة ومعروفاً واسطته المال المطلوب.

قبل أن يشعرني فاقدو الضمير هؤلاء بالاشمئزاز، فأنا بدوري فاقد ضمير. أقف غالباً أمام المرآة وأكرّر مرات عدة: "لست سوى شخص قذر، خائن، جبان، فاسد كالآخرين". لا يريحني ذلك، لكن هذه الطريقة في جلد الذات تمنحني القليل من الثقة، ونوعاً من الرضا الذاتي البائس الذي لست فخوراً به.

١٨

مليكة

إنني أتألم. جسدي بكامله يؤلمني. من رأسي حتى أخمص قدميّ. حتى شعري يؤلمني. أتوجع ولا يهبّ أحد للتخفيف عني. هو ينام ويغطّ في نومه. لم يعد ينظر إليّ، أو يكلمني. صرت غير مرئية، شفافة. هذا ما يؤلمني. لا شيء في موضعه. قلبي يخفق أسرع من العادة، ورئتاي ضاقت أنفاسهما، ويداي ترتجفان ولم أعد أعرف أين أنا ولا من أنا.

أنا طريحة الفراش، عاجزة عن النهوض. تظنون أنه سينتبه إلى أنني في حاجة إلى المساعدة وأنه سيكلف نفسه تحريك مؤخرته لمساعدة شخص في خطر؟ إطلاقاً! فهو شخص أنانيّ. هو يعلم جيداً، حتى وهو نائم أو متظاهر بالنوم، أنني في وضع سيئ. في هذا البيت السيد وحده تجوز له المطالبة بحقه في المرض. أنا لست شيئاً. لا وجود لي. مهملة. أولادي انقطعوا عن زيارتي. يتصلون بالهاتف ليقولوا إنّ لديهم كثيراً من العمل.

زوجي ليس أنانياً فحسب، بل هو مصدر الأنانية وأصلها. هو أوّلاً وبعده الآخرون، هذا شأنه دوماً، سواء مع زملائه، وأصدقائه، أو مع العاهرات اللواتي يعاشرهنّ، وبالطبع مع عائلته. لطالما كنت مقصيّة دوماً، فليس أنسبَ لك حين تقرر إزالة شخص من أن تضغط على زرّ فيختفي هذا الشخص. لقد ألقى بي خارجاً منذ زمن طويل، حتى قبل يوم الفاجعة المشؤوم. لم يكن مخلوقاً للزواج، للحياة الزوجية. كان مخلوقاً ليعيش وحيداً. وحين اكتشفت هذه الحقيقة كان الأوان قد فات.

يضرب التكلّس جميع مفاصل جسمي. مفاصلي تؤلمني ألماً شديداً. لا أستطيع الإمساك بكأس بأصابعي، ولا الاستناد إلى مرفقي للنهوض.

أسأل نفسي ما الذي أفعله في هذا القبو إلى جانب شخص أنانيّ نائم. لماذا أتقبل هذا الوضع؟ عانيت صعوبة في النهوض والتوجه نحو الفراش الذي يرقد عليه كطفل. أعترف بأنني أحسده على قدرته على النوم مباشرة. رفست الفراش بقدمي. لم يتحرك. رفسته هذه المرة في مؤخرته، فتحرك قليلاً. صحت به: "استيقظ! أنا مريضة ولا أحد يهبّ لمساعدتي".

– نعم، أعلم، أنت مريضة دوماً. وُلدت مريضة، وتزوجتك مريضة. أعرف كلّ هذا. دعيني وشأني واتركيني أعوّض النوم الذي ينقصني. أنسيت كم رفعت صوتك بالصياح مساء أمس؟ منعت جميع سكان الحيّ من النوم.

– ما دام الأمر كذلك لن أحضّر لك الطعام. هذا عقابك. على أيّ

حال، لا أستطيع استخدام يديّ. أنا معوّقة، سأتصل بالصينيّ ليحضر لي بعض الطعام.

– هكذا إذن! لن تستطيع أصابعك طلب الرقم. وإن شئت أن أقوم عنك بالمهمة، يجب أن نقتسم العشاء.

تملكتني رغبة في البكاء. ليس لأنه لا ينهض ولا يساعدني. لكنني أريد البكاء على حياتي، على أيامي ولياليّ التي لم تأتني بغير المتاعب. كنت أظن أن الناس يتزوجون ليشيخوا معاً، الشيخوخة برفقة رجل يدك في يده بحنان وصداقة.

هو خشن وقاسٍ ومن دون رحمة. ورث هذا الجفاف من والده. أذكر ما فعله بزوجته. كان يمنعها من الخروج أو استقبال صديقاتها. كان يراقب كلّ شيء ولا يعطيها من المال إلا ما تدفع به رسم دخول الحمام، مرة في الأسبوع. لو لم أكن فطنة، لعاملني زوجي بالطريقة نفسها.

أشعر بالملل. حتى آلام مفاصلي لا تصرفني عن مللي. جسدي تخور قواه. نهداي لا يزالان محافظين على تماسكهما. بطني مجعّد. رأسي ثقيل. أنا قبيحة. أصبحت قبيحة. فعل مراد كلّ شيء من أجل أن أفقد جمالي. أقنعني بتبديل تسريحة شعري، والامتناع عن التبرج، وعدم اتباع حمية غذائية. كان يسعى إلى تقبيحي ليسهل عليه كرهي. أنا بدوري لم أعد أحبه. لا أحتمله. رميت في المهملات قارورة عطره المريع المغشوش المباع تهريباً في السوق الكبير Grand Socco. تناولت مقصاً وقطّعت نتفاً ربطات عنقه. أنتقم بقدر ما أستطيع. أريد أن أثير لديه نوبة أعصاب، بما

يكفي ليشعر بوجودي. أكره أن يصاب بسكتة دماغية. هل تدركون معنى الاهتمام بشخص مصاب بشلل رباعي، معوّق الحركة؟ لا، يجب أن أجعله يتألم وهو محافظ على سلامة جسده.

أتساءل أحياناً عن سبب شعوري بالحقد. شعور لم أكن أعرفه سابقاً. هو الذي ولّده فيّ.

لا أزال أذكر تلك الحقبة التي كان كلّ شيء فيها يجري على أفضل ما يرام كأنها حياة شخص آخر. قسمت حياتي إلى مراحل عدة. هناك الحب، اكتشاف الحب، ولادة سامية، الفاجعة ثم اجتياز طويل للصحراء لا ينتهي. الآن أنا عطشى. لا أحد يقدم إليّ الماء. لا أحد يأتي ويمسك بيدي لأمشي وأتجنب المطبات والأفخاخ والصخور على الطريق. فهمت أنّ مراد يجعلني أدفع ثمن انكسار مقاومته أمام إغراء الفساد. هو إنسان فاسد تعِس ويتسبب لزوجته التي كان من الممكن أن تكون صديقته، وشريكته، ومتمّمته، في التعاسة.

اليوم، الجمعة، أريد زيارة قبر والديّ. يجب أن يأتي ابني البكر ويقلني بالسيارة إلى القبر. لا أدري لماذا المقابر، عندنا، مكبّ للنفايات. ما من احترام للأموات. القبور لدى المسيحيين في بوبانا نظيفة، عليها حراسة وتنظّف في كلّ الأوقات. هذه القبور المجاورة، قبور المسلمين، قذرة إلى درجة أنها لا تشجع على أي زيارة.

١٩

سامية

٣ نوفمبر ٢٠٠٠

اليوم تغيبت عن حصة الرياضة. قلت إنني في دورتي الشهرية وذهبت مع ابتسام، صديقتي اللطيفة، للتنزه في المدينة. لم نكن نرتدي الحجاب. منذ بضع سنوات انتشرت موضة غريبة بين النساء، شابات ومسنات. يتحجّبن، فيخفين بذلك جمالهن ويقدّمن أنفسهن على أنهن ذوات أخلاق لا غبار عليها. أجد ذلك سخيفاً. ريح الشرق تعود. تهب في شعرنا فتحولنا إلى لوحات رسمها فنان سوريالي. كان ذلك يضحكنا، حتى لو كنا نسمع تعليقات تفتقر إلى التهذيب يطلقها رجال يجلسون على طاولات مقاهي الأرصفة. هؤلاء منافقون. حتى أنني سمعت رجلاً مجعّد الوجه يقول: "لو كانت هذه ابنتي، لضربتها!" نعم، هناك من يستسهلون الضرب. أعلم ذلك، فجارنا يضرب زوجته بقدر ما يضرب بناته. يبدو أنه يشرب الكحول. لكن

لا أحد يتذمر أو يرفع شكوى. نتلقى الصفعات ونصمت. هذا جزء من تقاليدنا. أي تقاليد؟ لم أقرأ قطّ أنّ على الرجل أن يضرب المرأة من دون أن يعاقبه القانون. تحدثت ذات يوم عن الموضوع مع أبي فشرح لي أنّ لا علاقة للإسلام بذلك. كما أخبرني أنّ البدو، عرب شبه الجزيرة العربية، حيث ظهر الإسلام، كانوا يدفنون الفتيات الحديثات الولادة وهنّ على قيد الحياة، والإسلام هو الذي حرّم هذه الممارسة الوحشية. خلصهنّ من خطر داهم! رفض والدي دوماً الحج إلى مكة، على عكس أمي التي معظم صاحباتها في الحمام حججن. قال لي إنه لا يؤمن بهذه الشعائر خصوصاً أنه يكره السعوديين الذين لديهم سمعة سيئة للغاية، خاصة في طنجة. هذا معروف للجميع: يصلون في الصيف مع حقائب ملأى بالدولارات ليشتروا بها رجالاً ونساء. الجميع يتحدثون عن الموضوع، لكنهم لا يحركون ساكناً ضد نظام الدعارة المقنّعة هذه.

لدى نزولنا في شارع الحرية، توقفنا، ابتسام وأنا، أمام غاليري ديلاكروا Galerie Delacroix، التابع للقسم الثقافي في المعهد الفرنسي. كان هناك معرض لفنان مغربيّ شاب ركّب أشرطة فيديو وكتباً بينها كتاب لكافكا Kafka. أضواء النيون تضيء وتنطفئ تبعاً لموسيقا متكرّرة. لم نفهم شيئاً من هذا المعرض. ولم يكن هناك من يشرح لنا ما يريد الفنان التعبير عنه. أنا أحب الرسم عامة كلوحات غويا التي درسناها في الصفّ. كما أحب فان غوخ. مدرّس الرسم عرض لنا فيلماً عن هذا الفنان الذي قطع أذنه. الغريب أنّ الفيلم كان بالأسود والأبيض. بعد ذلك مرّر علينا المدرس كتاباً ضخماً لرسوم

منسوخة بالألوان.

ساحة السوق الكبير Gran Socco (يسمى هكذا بالإسبانية منذ زمن بعيد) لم تعد سوقاً للأزهار، ففي الوسط شكل بركة من دون ماء يلعب حولها الأولاد. نساء جالسات يتبادلن الحديث. بائع نوغا متمركز هناك.

من هناك، انتقلنا إلى الصياغين، السوق الشهيرة للصرافة بكنيستها التي تبدو في الظاهر مقفلة، والكنيس وسط ورشة ناشطة. يبدو أن من يتولون ترميمه يهود أميركيون لآباء ولدوا في طنجة. هذا ما قاله لنا الصائغ الذي تتردّد عليه أمي في الغالب لشراء المجوهرات أو استبدالها.

في الساحة الرئيسية لا شيء سوى المقاهي. وفي أقصى اليمين سينما أقفلت منذ زمن بعيد. العديد من دور السينما أقفلت أبوابها بسبب اجتياح الأقراص المدمجة لأفلام مقرصنة بالطبع. هذه الساحة على بعد خطوات من المرفأ. كانت مركز كلّ أشكال التجارة غير الشرعية، ويبدو أنها اليوم تبدلت: أسواق وباعة متجولون وعدد غير قليل من المقاهي المعتمة.

النساء القليلات الجالسات إلى الطاولات كنّ سائحات. قالت لي ابتسام: "تعالي، سنتناول فنجان قهوة أو كوب كوكا". لمَ لا؟ جلسنا وانتظرنا طويلاً قبل أن يتنازل النادل للاهتمام بطلبنا. تحدث إلينا بالإسبانية ظناً منه أنّ الفتيات المغربيات لن يجرؤن أبداً على الظهور علناً في مقهى حيث يدخَّن الحشيش في قاعته الداخلية بكلّ هدوء.

بعد الشاي الذي وصلَنا فاتراً، وعن عمدٍ بلا شك، سلكنا طريق القصبة[1] في اتجاه مقهى هافا الشهير، المشرف على البحر في مرشان. يافطة على المدخل تشير إلى أنه قائم منذ ١٩٢١. مصاطب تتالى مع طاولات من حديد وكراسيّ من القش معوجة الأرجل في الغالب. نحلات يحمن بفوضى فوق الرؤوس، إذ يقدم هنا خصوصاً الشاي بالنعناع الشديد الحلاوة. كان البحر اليوم جميلاً، صافياً وساكناً، أزرق حيناً وحيناً آخر أخضر. نلمح عند الأفق السواحل الإسبانية. في قاعة صغيرة، يجلس رجال على الحصر يدخنون الحشيش. اقترحت ابتسام أن نطلب من النادل أن يجهز لنا غليوناً من الكيف. قلت لها إنها مجنونة. فما من امرأة، خصوصاً في سنّنا، تجرأت على التدخين علناً. فالناس سيطردوننا خارجاً رجماً بالحجارة.

بدأت ابتسام تروي لي حكايتها مع رجل مسنّ ينشر قصائد في صحيفة مغمورة. أثنت عليه وأرتني صحيفته. قلت لها إنّ عليها الحذر من الناس الذين يبدون لطفاً. لم أقل لها شيئاً عن قصائدها التي أجدها باهتة ومتكلفة. من المستحسن ألّا أجرحها. لكن لا بأس إن وجدت أحداً ما يهتم بكتاباتها.

الأضواء التي تومض قبالتنا نبهتني إلى أننا تأخرنا، وأنّ أهلنا لا بدّ أن يكونوا منشغلي البال علينا. نهضنا وانطلقنا عدواً للوصول إلى منازلنا. نزلنا شارع حسنونة، ثم وصلنا إلى سوق الثيران حيث حيّنا. عمودان من دون إضاءة. كانت الطريق معتمة. البلدية لا تبدل

١ المدينة العتيقة.

أبداً المصابيح المحترقة، إلا إن مرَّ الملك يوماً من هناك. هذا ما يقوله والدي.

وجدتُ أمي بالجلابية أمام باب المنزل وهي تصلي بمسبحتها وتتضرع إلى الله. لم ترفع يدها عليّ، بل، على العكس، ضمتني إليها وهي تبكي. "قلقت عليك قلقاً شديداً... لا نعرف ما يمكن أن يحصل في هذه الأيام. أين كنت يا ابنتي؟ أخبريني...".

أخبرتها بالحقيقة. لم تنبس ببنت شفة.

سخّنت لي العشاء وضمتني مجدداً، وهو ما لا تفعله إلا نادراً في الأحوال العادية. قلت لها: "عليّ أن أختفي كي تعبري عن عاطفتك!"

– لكن يا ابنتي، أنت تعلمين كم أحبك. ليس من عادتك ألا تعودي من مدرستك في موعدك المعتاد. كان عليك إعلامي. أخيراً، الله أكبر!

أمضيت قسماً من الليل أحاول حفظ *Le bateau ivre* [المركب السكران] عن ظهر قلب. أعترف أنه واحد من الأشعار التي يصعب حفظها وكذلك فهمها فهماً جيداً. لكن الشعر هو هكذا؛ عليك البحث عن المعنى في بئر الكلمات.

المدينة تنام كالمواشي التي رسمتُها
الصمت حلّ مع المساء
ساحقاً الزهور التي يضوع عطرها
رأيت الشوارع والرجال المتعطشين للجنس

نساء يغمضن أعينهن
والبحر ينسحب من حلمهن
كمثل غطاء صوف يكشفهن
وأنا، محمولة نحو ما لا أراه
أفق يبتعد كلما تقدمت
الذراعان مثقلتان بالثمار والحب

٢٠

مراد

انقضى اليوم عشرون عاماً على تقاعدي. شكّل ذلك اليوم مأساة لي، وخصوصاً لزوجتي. وبما أنني لم أعد موظفاً في المكتب رقم ٩، صار عليّ فجأة الاكتفاء بمعاشي التقاعدي، أي بمبلغ هزيل لم يعد هناك مغلف يدعمه.

أعتقد أن أول أعراض مرضي ظهرت معاً. بدأت أشعر بألم في الركبتين، ثم في الكتف، وبعدها في المعدة والمعصمين. وكنت أنهض غالباً في الليل للتبوّل. ثم بتّ أعاني صعوبة في النوم. زياراتي إلى الطبيب لم تأتِ بنتيجة. قال لي: "عليك التكيّف مع وضعك الجديد. عليك بالمشي، أقله ساعة في اليوم، وممارسة الرياضة، والامتناع عن التدخين والطلب إلى زوجتك أن تدلك لك ظهرك بين فينة فينة". هو لا يعرف زوجتي. كان يكفي أن أطلب منها أن تدلّكني حتى تصيح: "وهل تحسبني عاهرة؟" لا، لم تكن تلك فكرة جيدة إطلاقاً. تبقى القراءة. أعدت تجهيز نظاراتي الخاصة

بالقراءة، وغطست في قراءة العمل الأول الضخم لمؤرخ عربي هو ابن خلدون. هذه المرة دوّنت ملاحظات. استغرقني ذلك بضعة أسابيع وأغاظ زوجتي التي لم تكن تدري ما أفعل. عن العرب، كتب ابن خلدون حقائق مروعة:

العرب إذا تغلبوا على أوطان
أسرع إليها الخراب

والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوايد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقاً وجبلة وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومنافٍ له فالحجر مثلاً حاجتهم إليه لنصبه أثافي للقدور فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليها لذلك صارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم (...) وأيضاً طبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وإن رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ أموال الناس حدّ ينتهون إليه بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون، انتهبوه، فإذا

تمّ اقتدارهم على ذلك بالتغلب أو الملك، بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران.[1]

هذا ما كتبه أواسط القرن الرابع عشر.

أذكر أنني درست هذا النص في الثانوية. كان أستاذنا، السيد غندوز، شخصاً استثنائياً. كان جزائرياً لاجئاً إلى المغرب. يحب مهنته حدّ العشق، ويحثّنا على المضيّ أبعد من حدود المظاهر والسهولة. كان يقول لنا: "لأن العرب اليوم يتصرفون بالطريقة التي صوّرها ابن خلدون، بلغوا أسوأ درجات الحقارة. الاحتلال العثماني ثم الاستعمار الفرنسي لدى البعض، والبريطاني لدى البعض الآخر. لقد ورثنا منهم غياب المدنية، وعدم احترام الفرد، أي عدم احترام القانون والحرية. هذا ما يفسّر كيف أنّ الفساد هو في أصل كل شيء".

وكان يضيف: "الفساد أشبه بالخشب المتعفّن! لا يمكنك بناء شيء بخشب نخره السوس، متآكل من الداخل. هذا السبب في أنّ بلادنا محكوم عليها ألا تبني شيئاً جيداً متيناً ما دامت تسمح للمواطنين بإفساد الجسد والروح". كما أتذكر أيضاً عبارة جميلة: "العدالة ركن العالم، والعالم بستان".

جاء ابني آدم لزيارتنا منذ أسبوع. كان في حالة سيئة. شعرت بأنه مشغول البال. كان يريد التحدث إليّ، والبوح بمكنوناته. قال

١ ابن خلدون، **المقدمة**، وهي الجزء الأول من "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر"، المجلد الأول. ص. ٢٧٩-٢٨٠.

لوالدته إنه سيخرج للتدخين، وهي حجة جيدة لنخرج ونكون وحدنا ونتحادث.

الطقس في الخارج كان رائعاً. كنت راغباً في رؤية البحر. اصطحبني إلى رأس سبارطال حيث جلسنا في مواجهة خط التقاء المتوسط مع الأطلسي لاحتساء كوب شاي. كان في المقهى عشاق، نساء محجبات، رجال بلحى مصبوغة بالحنة. همس لي: "لاحظت أننا هنا في منطقة إسلامية. صاحب المقهى هو إمام المسجد المجاور. الجميع منافقون". لكن لم يكن هذا هو الموضوع الذي يريد أن يثيره معي. فهمت سريعاً أنّ عمله هو سبب ضيقه. رئيسه تعرض له أيضاً ولنزاهته. كان الموضوع عن قطعة أرض تملكها عائلة متواضعة، ويريد رجل ذو سلطة، وزير أو نائب، الاستيلاء عليها باسم الدولة ليبني عليها مركزاً رياضياً. كان ابني يعلم أنّ ذلك خطأ وأنّ رئيسه في حاجة إلى كفالته في هذا التجريد غير القانوني من الملكية. رفضه الحاسم دفع رئيسه، كما في الجيش، إلى تسريحه، فانتزع منه مفاتيح مكتبه وصاح به: "عد إلى منزلك، أيها الأحمق، لا أريد رؤية وجهك القذر ثانية. هيا، انصرف، لا يأتيني منك سوى المشكلات. من أين جئت، لا نقول إنك مغربي!"

أصيب ابني بالذهول: "انظر يا أبي، لقد ربيتنا على احترام القانون والنزاهة. لكن في هذا المغرب وحدهم المفسِدون والمفسَدون يعيشون في أفضل حال. أجدني ضحية واجبي وقيمي. رئيسي يتصرف كدكتاتور، ولا أجد ملاذاً لمواجهة اعتباطية وعنف هذا الشخص الذي يسمح لنفسه بكلّ شيء، لأنه، كما تعلم، يؤدي

خدمات مهمة لأصحاب النفوذ في الرباط. أشعر بالاشمئزاز".

وجدت صعوبة في تطييب خاطره. لم أجد في نفسي الجرأة أن أعترف له بأنني بدوري كنت شريكاً في هذه الروح الإقطاعية، وأنني كنت جهازاً فاعلاً في آلة الفساد. نصحته بالصمود وبعدم القلق: "هؤلاء وحوش يفعلون ما يحلو لهم ويرون البلاد ملكاً خاصاً بهم. بين يوم وآخر، سيجد هذا المدير المدّعي والسوقيّ نفسه متعطلاً عن العمل لأنه يكون قد خدم ما فيه الكفاية وسيجري استبداله بآخر أكثر مكراً ووقاحة منه. سترى، ستمرّ جثته أمامك، على النهر الشهير حيث يُطلب منا الانتظار. بعد كلّ شيء المصنع ليس ملكه. ليس سوى مدير مع صلاحيات كاملة وتواطؤ مع سلطات الرباط".

حدثته بعد ذلك عن أمه وعن مشكلاتنا معاً. كان جذرياً في اقتراحه: "عليكما بالانفصال. أعلم أن ذلك صعب لكن لا يمكنكما الاستمرار في تبادل الأذى ليلاً ونهاراً. أقترح عليك أن تنتقل إلى السكن معي وتبقى أمي في القبو. يجب أن أعثر على امرأة تعتني بها، حتى لو أنني أعرف أنها سترفض".

– أنت على حق يا بنيّ، هذا ما عليّ فعله. مغادرة هذا المنزل والانتقال إلى مسكن آخر. ليس بالضرورة عندك. غرفة صغيرة تكفيني. إنني في حاجة إلى السلام، في حاجة إلى العزلة. لكنني أعتقد أنّ الوقت تأخر بي، إذ لم يعد لديّ الإمكانات المالية ولا الجسدية. أنا محكوم عليّ بالعيش معها كما محكوم عليها بالعيش معي حتى نهاية المطاف.

لم يصرّ ابني. بينما كان يعيدني إلى المنزل، توقف أمام

السوبرماركت واشترى لنا بعض المؤونة. وقبل أن يغادر، دسّ في يدي سيجار بارتاغاس Partagas رقم ٤، وقال لي: "ستدخنه بهدوء، في حديقة البيت الصغيرة. وقت ممتع أتمنى تقديمه إليك، فأنت تستحقه. أما بالنسبة إلى أمي، فإن لم تكن لديك الجرأة على تركها، فحاول أقله ألا تلومها. الحياة كانت قاسية جداً عليها، أكثر مما كانت عليك! تعلم ذلك أفضل مني".

٢١

مليكة

ليس لأحد الحق بالتلفظ باسمها. ولادتها كانت حدثاً بالغ السعادة. مجيئها ملأني غبطة. كنت أرى العالم مبهجاً ومليئاً بالألوان. نور علوي كان يتبعني في كل مكان. كنت محظوظة ولم يكن في استطاعتي أن أتصور أنّ الله سينتزع مني هذا النور الذي كان يحميني ويضيء سبيلي.

كانت طفلة هنية وذكية وهادئة ولطيفة. لم تكن تبكي قطّ تقريباً، حتى أنني سألت طبيب الأطفال عن ذلك. لقد أشاعت جواً من السلام الرائع في عائلتنا. مراد كان بالغ التنبه إليها ومحباً وعطوفاً. حياتنا كانت مثار حسد وكان ذلك يقلقني.

نشأتْ في وسط هانئ. حين بدأت أولى نزاعاتنا حرصتُ على جعلها في منأى عنها. لم تعرف مطلقاً بشأنها. ذات يوم اكتشفت أنها تكتب الشعر. كانت بالغة التكتم. لدى ولادة ابننا، غمرتها السعادة. كانت قد أتمت العاشرة، وتساعدني، وتهتم بالمنزل. وكنت أشعر

أنّ حضورها من باب المعجزات، وكنت مقتنعة تماماً بذلك. كنت أصلي وأطلب من الله أن يحميها، وأن يساعدني على أن أؤمّن لها أكبر قدر ممكن من السعادة.

يجب أن أتوقف عن التفكير فيها. قدماي تنزلقان كأنني أسير على منحدر مغطى بالصابون. لا أشعر بأنني في حالة جيدة. هذا الصباح، ذاك الآخر، المريض المخادع، لم يستيقظ. حين ينام أشعر بالسلام يسود في القبو. يجب أن أخرج وأزور ضريح والدتي. مرّ وقت طويل لم أحدثها خلاله. إن استيقظ ولم يجدني، فسيثير فضيحة. أنا أعرفه. هو في حاجة إلى عبدة. لقد أعطيت الكثير. تركت الراديو مشتغلاً لخداع اللصوص، واستقللت سيارة أجرة.

المقبرة هذا الصباح تشبه مرجاً تطغى فيه حمرة شقائق النعمان على صفرة زهور الأقحوان الصغيرة. اقتربت من قبر أمي. فارتعبت. شاهد القبر ملطّخاً بالأقذار. يا للهول! بحثت بعينيّ عن الحارس. وصل مهرولاً ظناً منه أنّني سأعطيه مالاً.

– من فعل هذا؟

– لست أدري.

– أين كنت حين كان قبر أمي يتعرض للتلويث؟

– لعلي كنت نائماً. لا بدّ أنهم فعلوا ذلك أثناء الليل. هم السود، نعم، الكهلوش، الزنوج، الذين يأتون غالباً وينامون هنا. ما من أحد سواهم يعمل عملاً مماثلاً. أعدادهم تتضاعف باستمرار. يغادرون بلادهم ويظنون أن المركب ينتظرهم في طنجة ليقلّهم إلى إسبانيا.

هذا الشخص يوترني. سوء نيته يُقرأ على جبينه. لا يزال ينتظر لأعطيه المال. استدرت على عقبيّ وغادرت القبر مغضبة.

لدى خروجي من المقبرة، اعترضني شاب أسود رشيق القوام، ونظيف الجسد كما يبدو، وقال لي: "سيدتي، أنا في حاجة إلى العمل. إن كنت تعرفين أحداً، فبإمكاني أداء جميع الأعمال التي يطلبها. إنني في صحة جيدة، سيدتي".

قررت في البداية تجاهله. ألعله الذي لوث قبر والدتي؟ تمعنت فيه قليلاً أيضاً فتكوّن لديّ انطباع جيد عنه. يبدو لي أنه صادق. سألته أين يمكن أن أجده إن احتجت إليه. فأجابني: "أمام باب المقبرة. هذا عنواني".

راودتني فكرة استخدامه لديّ، ثم تخيّلت ردّ فعل مراد، وغيرته، وأفكاره العنصرية وأشياء أخرى عدة. وكلما أمعنت التفكير، اكتشفت أنّ استخدامه للعمل في المنزل فكرة جيدة. الأمور لم تجرِ جيداً مع الخادمات. فقد تسببن لي دوماً في المشكلات، ثم إنهن جميعاً سارقات، من دون استثناء. السرقة والفساد يسيران جنباً إلى جنب. إنهما أسلوبا حياة لدعم الرواتب البائسة.

استخدام رجل في المنزل ليس من أجل الأعمال المنزلية فقط، لكن أيضاً من أجل مساعدتنا، زوجي وأنا، فهذا ما نحن في حاجة إليه. لم أعد أستطيع الاعتماد على أولادي. سأفاتح مراد بالموضوع، لكن حين عدت إلى المنزل كان نائماً. أحدثت ضجيجاً لإيقاظه. لم يتحرك. اقتربت منه ووضعت أذني على صدره. لا يزال قلبه يخفق. هو لم يمت بعد. لا بدّ أنه تناول حبّة أو اثنتين من الحبوب المنومة.

هذا يحدث له من وقت إلى آخر. حين استيقظ في وقت متأخر من بعد الظهر، عرضت عليه فكرتي: "سأستخدم أحداً ما في المنزل".

– مرة أخرى، امرأة تسيئين معاملتها، وتطردينها بعد بضعة أسابيع متهمة إياها بالسرقة...

– إطلاقاً. جميع الخادمات يسرقن. هذا تقليد معروف جيداً عندنا.

– إذن، وجدتِ الطائر النادر؟

– أفضل من طائر، حصان أسود بديع.

– حسناً، تتمتعين لو لمرة واحدة بروح الدعابة.

– أنا لا أمزح. التقيت في جوار المقبرة واحداً من هؤلاء الشبان الذين لم يفلحوا في اجتياز المضيق للهجرة إلى إسبانيا. فتى وسيم ونظيف وخفيف الروح. يبحث عن عمل. أفكر في استخدامه على سبيل التجربة. ستكون المرة الأولى التي نستخدم فيها رجلاً للأعمال المنزلية. بعد كل شيء، جارتنا، تلك التي تعرّض زوجها لجلطة في الدماغ، استعانت بشاب، من الكاميرون على ما أعتقد، يهتم جيداً بزوجها المريض.

لم يعد مراد يصغي إليّ. غاص مجدداً في كتابه الضخم. يقرأ ويدوّن ملاحظات وأتساءل ما جدوى كل ذلك.

راودتني فكرة استقدام ذلك الأسود الليل بطوله. يمكنه كثيراً مساعدتي. هو شاب في كامل عزيمته. الأفارقة يختلفون كثيراً عنا؛ لديهم بنية جسدية أشد صلابة من بنيتنا. لو أن زوجي يسمعني، لقال لي إن ذلك كلام عنصري. هو لا يؤمن بوجود الأعراق. لا بد أنه

أعمى. بالطبع هناك عرق أبيض مختلف عن الأسود. هو يقول إنّ لا وجود إلا لعرق واحد، العرق البشري، المكوّن من مليارات الكائنات.

في اليوم التالي، عدت إلى المقبرة. كان الفتى في هذه الفترة قد نظّف ضريح والدتي. أعطيته هذه المرة القليل من المال. أشاد بالشاب الأسود الذي ينتظر عند باب المدخل. الحارس حذّر من الغرباء عامة، لكن رأيه جيد في هذا الشاب.

كان الشاب جالساً على حجر ويقرأ كتاب جَيب. قاطعته وسألته عن اسمه: "اسمي فياد".

– فياد؟ هذه المرة الأولى التي أسمع فيها بهذا الاسم. ما مصدره؟

– موريتانيا سيدتي.

– أنت موريتاني؟

– نعم، من أب سنغالي وأم موريتانية. هذا ليس اسماً عادياً. إنه اسم أطلقته على نفسي. معناه الحياة مستحيلة (من دون) حب وكرامة: V.I.A.D.[1].

– ألعلك مثقف؟

– نوعاً ما... تابعت دراستي وناقشت أطروحة، لكن بعد موت والديّ، كان عليّ مغادرة نواكشوط حيث تعشش عنصرية رهيبة ضد السود.

---

١ الاسم في النص الفرنسي VIAD وهو مؤلف من الأحرف الأولى للكلمات الأربع: حياة، مستحيلة، حب، كرامة.

– وهل هناك عنصرية بين السود؟

– لا، الأمر ليس كذلك. موريتانيا تحكمها أقلية من المور، وهم عرب ببشرة أقلّ سواداً من بشرة سائر الموريتانيين الذين يتحدر بعضهم من السنغال وآخرون من بلدان أفريقية أخرى. ولأنّ بشرة المور أفتح، يرون أنفسهم أعلى شأناً من السود. يفرضون أنفسهم في كل مكان: في السلطة، في المصارف، في الأعمال... باختصار في كلّ ما له أهمية. نحن السود في خدمتهم.

– عبيد، عجباً!

– لا أجرؤ على استخدام هذا التعبير، سيدتي. نعم، تُفرض علينا شروط العبيد. وباعتباري أسود، لم يكن لي حق ممارسة التعليم في الجامعة في حين أن موضوع أطروحتي هو العنصرية بين الأفارقة.

– ولهذا حاولت الهجرة إلى إسبانيا؟

– نعم. هي سبب، والسبب الثاني الفقر.

هكذا كانت البداية مع فياد. بعد أقل من نصف ساعة انتقل للإقامة عندنا، لتبدأ صفحة جديدة من حياته.

٢٢

سامية

٥ نوفمبر ٢٠٠٠

ينخرني حدس منذ الأمس بأنني لن أحيا طويلاً. وأزداد يقيناً أكثر فأكثر. أرى أشياء لا أستطيع تفسيرها: تعتريني قشعريرة كلما تملكني هذا الحدس اللعين، في النهار كما في الليل. يوقظني حين أنام، كأن الموت واقف أمام الباب ينتظر أن أنهض وأدعوه للدخول. أفكر في الموت كأنه شبح أبيض يأتي ويغلفني ويحملني بعيداً جداً من هذه الحياة. لا يحمل منجلاً. معلق في الهواء كريشة عصفور. غبار ينتظر لحظة السقوط. يسقط كالحقيقة. قاطع من دون نقاش ولا انقطاع. هو ساطور. لا يخيفني، لكنه يذكّرني بأنّ وقتي ينفد. لذا أسرع في الكتابة. لا أفكر. أكتب تحت إملاء العالم، عالمي بالطبع. ليس لديّ ادعاء احتضان العالم أجمع.

حين ينحسر هذا الحدس، أشعر بتيار هواء منعش يعبر الغرفة. أفتح

النافذة وأعود إلى سريري لمتابعة الكتابة.

ما همّ لو أن قصائدي قرأها أحد ما يوماً. الآن، لديّ اقتناع بأنّ عليّ أن أكتب، والمضي قدماً من دون تردّد.

جاءت والدتي لرؤيتي والاستفسار عن صحتي. تجد أنني شاحبة جداً، وأنّ بالي منشغل بتفاهات وأن عليّ مغادرة هذه الغرفة من وقت إلى آخر، ومرافقتها مثلاً إلى الحمام، أو زيارة إحدى خالاتي. أذهب إلى الحمام. على الأقل، هناك، أتعلم أشياء. أصغي إلى كل ما يقال وأسجّل. رأسي حافل بحكايات لا تكاد تصدّق. شهدت منذ أيام موقفاً غريباً. شابة راكعة على ركبتيها تحفّ الأرض بالليفة والصابون حفّاً محموماً. سألتها والدتي لماذا تنقضّ على هذا الركن من القاعة. فأجابتها بكلّ جدية: "تعلمين جيداً أن الحمام يرتاده الرجال صباحاً، بعضهم يقذفون وهم يمارسون ما تسمّى العادة السرية. فأنا إن لم أنظف المكان الذي سأغتسل فيه جيداً، فقد تدخل الحيوانات المنوية إلى جسدي، وأجدني حاملة من مجهول!"

انفجرت والدتي بالضحك. استاءت منها المرأة. وغادرت مكانها مغتاظة.

امرأة أخرى بدينة جاءت تغتسل قربنا. طلبت من والدتي أن تفرك لها ظهرها. فأجابتها والدتي بأنّ هناك مدلّكات لهذه المهمة. فألحّت عليها: "يداك بيضاوان وناعمتان. سيمدانني بالسعادة ويحرران الطفل النائم".

لم تكن المرة الأولى التي أسمع فيها أحداً ما يتحدث عن "الطفل

النائم"، وهي أسطورة ابتدعتها النساء الخائنات اللواتي يطمئنّ أزواجهنّ الذين سافروا للعمل في الخارج بأن يقلن للواحد منهم: "من أحمله في أحشائي منذ عامين هو طفلك". وكانت الخدعة تجوز على بعضهم أحياناً.

حين أرافق والدتي لدى إحدى شقيقاتها، أهيئ نفسي للملل. لا يتحدثن إلا عن المال وأخبار الزواج. والموعد لا يخطئ أبداً، في وقت محدّد، حين يقدمن إلى أنفسهنّ الشاي وإليّ الكعك المحلى بصناعة منزلية. تتخذ خالتي طابع الجدية وتتوجه إليّ: "تعلمين، ابن خالتك حمزة، ابني الوحيد، هذا الذي كنت تشاركينه اللعب بالدمية التي تحتفل بعرسها، لا يفتأ يسألني عنك. إنه طالب زواج. تخيلي، سامية وحمزة، يا لهذا الثنائي الرائع! سيثيران غيرة الجميع. فكّري في الموضوع يا ابنتي!"

هنا تتدخل أمي: "لا تزال صغيرة، لكنني أوافقك الرأي، سيشكلان ثنائياً جميلاً".

أبتسم وأضحك وأملّ. غرفتي، سريري، دفتري... أفتقدها جميعاً. أفتقد عزلتي. هؤلاء الأشخاص لا يدركون لذة التمتع بعزلة منشودة مقبولة مدللة، تلك التي تفتح الأبواب على عوالم أخرى.

في هذه اللحظة، أقرأ أشعار فيكتور هوغو. تحملني إلى مناطق رحبة وخيالية. حين أنهي القراءة، أنظر عبر النافذة. أشخاص يمرون. بعضهم في عجلة من أمرهم، وآخرون يسيرون ببطء.

بين عقلي وقلبي
البطء هو طريقي

لا أدري إلى أين يقودني
أصعد إلى الشجرة وأنسى كل شيء
الريح هي التي تلفح جنبي
أستيقظ وأبحث عن الطريق

٢٣

فياد

غرفتي ركن من مغسل الثياب حيث مدّت سيدتي فراشاً من الإسفنج ومخدة وبطانية. أعطتني بيجاما قديمة كانت لزوجها. أنام هناك وأقرأ وأفكر في هذا الجزء من المنزل الذي لا يخلو من الرطوبة. لا يصلني كثير من الضوء. وليس من حقي الحصول على مصباح. حين يصبح لديّ مال، سأشتري مصباح جَيب. أحب كثيراً القراءة قبل النوم. كتاب الجَيب الوحيد الذي حملته معي، قبل أن أغادر بلادي، هو مذكرات المصري طه حسين عن الريف المصري، كتاب **الأيام**. لقد دوّنت هذه العبارة: "كان لأهل الريف، شيوخهم وشبّانهم وصبيانهم ونسائهم، عقلية خاصة فيها سذاجة وتصوّف وغفلة، وكان أكبر الأثر في تكوين هذه العقلية لأهل الطريق"[1].

شعرت بنفسي شديد القرب من هؤلاء الناس، فقد كان عندنا في

١ طه حسين، **الأيام**، الطبعة الأولى، ص. ٨١.

موريتانيا شيخ صوفي كان متصوفاً وله قراءة منفتحة للإسلام. حاربه أولئك الذين تلقوا تعاليم الوهابية، المتعصبون العنيفون.

أنفذ الأعمال المنزلية: أغسل الأرضية، أكنس بالمكنسة الكهربائية التي كثيراً ما تتعطل، أتولى التسوق، أعيد معي دوماً الإيصالات. سيدتي تدقق في كل شيء. ما من سنتيم واحد يجب أن ينقص. تعلّق غالبية الأحيان على الأسعار، فتقول: "أسعار الطماطم ارتفعت مرة أخرى. الأسماك باهظة الثمن. أسعار الدجاج لا تزال معتدلة لكن الدجاج محقون بالهرمونات الكثيرة". سيدي، من ناحيته، لا يدقّق في شيء. الوضع شبيه إلى حدّ ما بالوضع في بلادي حيث النساء مسيطرات على الرجال، لا العكس. لا نعلن ذلك، لكن والدي كان مطيعاً دوماً لوالدتي. كانت تتركه يوهم أصدقاءه بأنه من يدير المنزل. لم أكن أعلم أنّ النساء في المغرب كنّ على هذا القدر من القوة. على أيّ حال سيدتي قوية. تردّد كلّ الوقت أنها مريضة، ولا أعلم ما الذي تعاني منه. سيدي، من ناحيته، متعَب جداً. يذكرني بجدي حين لم يعد يستطيع النهوض. ومع ذلك، لا تزال لديه الطاقة على القراءة وتدوين الملاحظات. أودّ أن أطلب منه أن يعيرني واحداً من كتبه، ولا فرق إن كان بالعربية أو الفرنسية.

أمس طلبت مني سيدتي أن أكنس قاعات الجلوس والغرف في الطبقة العلوية. لم تكن قدماي قد وطئتاها سابقاً، ولم يكن لي علم حتى بوجودها. غرفة المعيشة معتمة وتعبق برائحة الرطوبة والعفونة. أردت تهويتها، لكنّ سيدتي تملكها الغضب: "لا، حاذر خصوصاً

فتح الشبابيك، فالجيران قد يرون غرفة جلوسنا". لم أفهم سبب إغلاق هذا الجزء من المنزل. لا بدّ من وجود لغز. لم أقل شيئاً. لا يسمح لي بقول شيء. أطيع وأكتفي بتنفيذ ما تطلبه مني. لم نتحدث عن الراتب. أنتظر نهاية الشهر لألمّح لها بكلمة، وأنتظر كيف يكون ردّ فعلها. عندنا في موريتانيا، كنا لندعوهم "البرجوازيون"، أشخاص ميسورون على ما يبدو، لكن لديهم علاقة غريبة بالمال.

سألت هل بإمكاني الاستماع للراديو الموجود في المطبخ. فقالت لي: "أنت في حاجة إلى سمّاعات. لا ينبغي أن تكون لنا الأذواق نفسها في الموسيقا". أخيراً أعطتني جهاز موسيقا نقالاً صغيراً مع سمّاعات رأس. أمضي الليل في الاستماع للموسيقا المصرية. أحب كثيراً هذه الموسيقا التي تسافر بي، وتحملني إلى بلادي حتى لو لم أكن راغباً في العودة. فأكون حذراً قدر الإمكان. لديّ خوف دائم من أن أزعج أحداً. بعد ظهر أحد الأيام، طلب مني سيدي، ما إن خرجت زوجته، أن أسرد عليه حكايتي. شعرت بالإحراج. ولم أكن أعرف بماذا أبدأ. أشعرني بالراحة بقوله لي إنه مهتم بمصير اللاجئين والمهجّرين.

– لماذا غادرت بلادك؟

– يمكنني أن أقول لك إن السبب هو نقص في فرص العمل، لكن الحقيقة أنّ ما تركته، ما هربت منه، هو عنصرية الموريين تجاه السود.

سيدي كان على بينة من الحرب العنصرية بين موريتانيا والسنغال عام ١٩٨٦. والدي الأسود كان يتطرق إليها غالبية الأحيان.

فكّر سيدي وسألني: "هل تعتقد أن المغرب خالٍ من العنصرية؟"

– نعم، أعلم أن الناس هنا لا يحبون السود كثيراً، لكن ذلك أقلّ خطورة مما هي الحال في بلادي. سأعطيك مثلاً. تابعت الدروس نفسها التي تابعها موها، ابن مالك البيت الذي نسكنه. حتى أنّ علاماتي كانت أفضل من علاماته. كانت هناك وظيفة شاغرة في وزارة الراديو والتلفزيون الوطنيين. أجرينا الامتحان نفسه. جاءت علاماتي أعلى من علامات موها. فاختارته الإدارة فقط لأنّ لون بشرته لم يكن أسود. كان من الموريين. مظالم من هذا النوع موجودة في كل وقت. بالنسبة إلى الموريين الأسود هو بالضرورة أدنى مرتبة. السود والموريون لا يتخالطون. ذات يوم شاهدت لدى زميل لي فيلماً أميركياً عن العبودية في أميركا. تماهيت تماماً مع الشخصية الرئيسية، ضحية العنصرية في أكثر أشكالها توحشاً. غير أن الأمور في أميركا تبدلت. عندنا ليس هناك مقاومة. نتلقى ونصمت. ثم يجب أن أقول لك إن الموريين الذين يحكموننا لا يفعلون شيئاً للبلاد. نواكشوط، العاصمة، أشبه بمدينة أكواخ. هناك جادة واسعة أقيمت وسط الرمال. من دون أرصفة. المنازل الجميلة يملكها موريون. السرقة والفساد متفشيان إلى درجة تفوق التصور، يا سيدي.

– إذن، جئت إلى المغرب لأنك تعتقد أن الوضع أفضل؟

– لا مجال للمقارنة يا سيدي!

– أعلم، أعلم... على أيّ حال، شكراً لأنك هنا. السماء، أو ملاك ما، هما من أرسلاك إلينا.

كنت شديد التأثر بما قاله لي سيدي، إلى درجة أنني اقترحت عليه الخروج في نزهة على الأقدام. كان الطقس جميلاً ذلك اليوم. ساعدته على ارتداء جلابيته وأجرينا جولة في حيّ سوق الثيران لساعة تقريباً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٢٤

مليكة

أعترف أن الأمور تبدلت منذ مجيء فياد، لكن يبدو أنّ زوجي استفاد من هذا المجيء أكثر مني. يخرج بصحبته معظم الأحيان. اكتسب عادة وضع يده على كتفه والطلب إليه أن يقوده إلى المقهى. في تلك الأثناء، أكون في المطبخ. هذا ليس عدلاً. أنا أيضاً أرغب في الذهاب إلى المقهى وشرب القشدة وتناول كرواسون لذيذ. كم أحب الذهاب بعد ظهر هذا اليوم إلى محل حلويات Espagnola الذي تديره مع أولادها أرملة رجل شجاع اغتالته المافيا الهولندية وتقدم الكاتو اللذيذ! لكن الظهور بصحبة رجل أسود سيجعلني عرضة لألسنة السوء. سيقولون مباشرة إنّ لديّ عشيقاً، وفوق ذلك أسود. لا، الأفضل تجنب هذا النوع من الشائعات. كما سيقولون إنني أستغل مهاجراً تعِساً حوّله الشقاء عبداً.

أنا غاطسة في المشكلات، عالقة في الغرق، مبتلية بالاستياء وحتى بالحقد. الزواج والإنهاك جعلاني حقودة. في السابق، لم أكن أحتقر

إنساناً. اليوم لم أعد أحتمل أحداً. الأسود يساعدني في الأعمال اليدوية. لكنني لا أحتمل رائحته. لقد سمعت دوماً بأنّ للسود رائحة عرق خاصة. لم أجرؤ أن أطلب منه الذهاب إلى الحمام. طلبت من زوجي أن يتولى المهمة. لكن الأمر تحوّل إلى نقاش حول العنصرية. إذ يبدو أنّ لنا، نحن البيض أيضاً، رائحة لا يحتملها السود. في الظاهر لنا رائحة الجثة! لن نتخلص منها. ذات صباح قررت أن أتحدث عن الموضوع إلى فياد.

– سيدتي، حين وصلت إلى طنجة، أول ما فعلته كان زيارة الحمام. بعدها، وللمحافظة على نظافتي، اقترحت على الحارس أن أعمل مدلّكاً. فالبيض يحبون أن يدلكهم السود. اليوم، سيدتي، أغتسل كلّ صباح، وأطمئنك أنني لا أقلّ نظافة عنك وعن زوجك.

هنا انتفضتُ. زوجي بسبب حالته صار يتحمم أقلّ فأقل. أحياناً ندخل المغطس معاً، لكنه يحتجّ وأنا كذلك. اعترف فياد بأنه يغسل زوجي حين أخرج.

بعد هذه المناقشة، حرص فياد على أن يريني شهاداته وصور عائلته. أعترف بأنني تأثرت. بين الصور كان هناك صورة لشقراء، أجنبية على الأرجح.

– هذه سولانج، المرأة التي أحببتها والتي كان عليها مغادرة موريتانيا. كنا نتقابل سراً، كاللصوص، إلى أن وشى بنا ذات يوم أحد الجيران للشرطة التي ضبطتنا في الشقة التي كانت تقيم فيها. كانت تعمل في مصرف فرنسي. انفجرت الفضيحة. أنا فقدت عملي وسولانج عادت إلى فرنسا. سرتُ على مدى أشهر وفي رأسي حلم

التقائها في نانت، مدينتها الأم. لكنني خسرت كلّ شيء، مال رحلة العبور، والأمل في لقائها، والرغبة في العيش. لم يعد لديّ أوراق ثبوتية. كان عليّ إحراق كل شيء. اليوم أنا عديم الجنسية. لكن، أنت والسيد، يمكنكما ربما أن تساعداني للحصول على نُسخ، من أجل التقدم بطلب الحصول على تأشيرة دخول إلى فرنسا.

– صديقي المسكين، نحن منهكون ولا نعرف أحداً في الإدارة. لا بد لك من معجزة، وقد تحدث، فلا أحد يعلم.

امسح الكود .. انضم إلى مكتبة

٢٥

سامية

١٥ نوفمبر ٢٠٠٠

تواردت الأفكار في رأسي في تنظيم لا تشوبه شائبة. لست أدري من ذا الذي نظمها هكذا بحسب ترتيب الحجم واللون ثم الأهمية. لم أكن أدري مثلاً أن فكرة الموت تحتلّ المرتبة الثالثة. سبق أن فكرت فيها لكنني لم أواجهها بجديّة. ما يحلّ أولاً أمر غريب للغاية: سأكون مقدّرة لمستقبل مليء بالنور والنعمة. من الذي استطاع أن يرسم هذا الجانب من حياتي المستقبلية؟ مع ذلك لا شيء يؤهلني لحياة متألقة. أنظر إلى والديّ فيعتريني ذهول شديد. يسمّون هذين زوجين سعيدين. أراقبهما في غفلة عنهما فلا ألمح أدنى أثر لانسجام وبنسبة أقلّ لسعادة مبهرة.

الفكرة الثانية تتعلق بالكتابة خصوصاً كتابة الشعر. هنا، أجد نفسي. إنني مشحونة بالكامل بحب الشعر، ليس المكتوب

وحده، بل أيضاً عبر الموسيقا والغناء. أستمع للراديو الصغير في وقت متأخر من الليل. أحياناً أقع على نقل حفل موسيقي من قاعة كبرى في باريس أو فيينا. أتخيل هذه المدن وأرى الرجال والنساء في ثياب أنيقة مهذبين متحضّرين، وينتظمون في الصفّ أمام شباك التذاكر ويتقدمون بلباقة للاستماع للموسيقا. لا أتمكن من تخيّل مثل هذا الموقف في بلادي. نستمع للموسيقا في الأعراس. موسيقا أندلسية أو أغنيات شعبية. نظام الصوت سيئ والأذنان تتألمان.

من هنا، أقوم بتصنيف بسيط: كان الأوروبيون محظوظين لوجود موزار، هو الموسيقي الكبير الوحيد الذي أعرفه بفضل معلم الرسم. كان يعقد جلسات استماع شبه دينية لسوناتاته. نحن كانت لدينا الموسيقا الأندلسية التي لم أكن أستطيع تقديرها وفق القيمة التي تستحقها. لم يعرّفني أحد إلى هذه الموسيقا التي ترتبط في ذهني بالأعراس.

معلم الرسم هذا أهداني أسطوانة جان فيرّا يغني أراغون. استمعت لها مرة عند جارتنا وهي إسبانية تعلّم الرقص. لا أزال أحتفظ بهذه الأسطوانة بحرص على أمل أن أشتري مشغّل أسطوانات للاستماع لها.

أسترجع أفكاري وأحاول بقدمي دفع الوحدة التي تهدد بالاستقرار فيّ مدة طويلة. أنا أعرفها. أحبها أحياناً وأحياناً أخرى أكرهها وأصرخ بها كي ترحل. لكنها مليئة بالضغينة. تعود مبتسمة وتمسك لاحقاً بخناقي كأفعى تلهو بفريستها.

الصيف حارّ. الجميع يتحدث عن آخر مسيرة ضد الجفاف. قال لي والدي إنه لو كان في عمر أصغر، لكان سار مع آلاف المغاربة. لكنه لا يتمتع بنشاط كبير. يقول لي ذلك ليقدم إليّ نفسه على غير صورته الحقيقية. على أيّ حال، تولت والدتي الردّ عليه من دون رحمة: "لكي تمشي يجب أن يكون عمودك الفقري مستقيماً، أما أنت، فتسير منحنياً!"

منذ ذلك الحين، لم يعد يسعني إلا أن أرى والدي محنيّ الظهر أكثر فأكثر، كأن على ظهره حملاً ثقيلاً جداً. الصورة قبيحة. لكنني لا أستطيع شيئاً حيالها. اعتراني شعور مبكر بالإحباط لا أستطيع وصفه ولا تفسيره. في الواقع، يمكنني تماماً تحليله لكن ليست لديّ رغبة في مواجهة ما سأكتشف.

لا تفتأ والدتي تردّد لأخواتها كم أنني فتاة مبكرة النضج. تريدني أن أتجاوز صفاً، لكنني رفضت. أنال علامات جيدة من دون جهد. أحب التعلم، وأحب المدرسة، وأشعر بنفسي غريبة أكثر فأكثر عن هذه البيئة، وعن هذه العائلة. أعتقد أنني من مكان آخر. أحبّ التفكير فيه، وتصديقه.

ذاك الذي ينحدر من الجبال
هو ثور أعور يلطم السنديان
يختلس النظر عبر الدروب والحقول
الموت في طرفة عين هو قدره
تخيلته وعاش
لست خائفة وأسقط عن سريري

على كومة من الخبازى الطازجة
لجعل حلزون البلاد
صالحاً أخيراً للأكل على ظهر حمار
يدخن سيجارة خفيفة على طرف قضيب رقيق

٢٦

فياد

لحسن الحظ أنني كنت هنا هذا الصباح. جدال بين سيدتي وسيدي على وشك أن يتخذ منحى أسوأ. بدأ كل شيء بسبب كوب فاتر من القهوة بالقشدة. صاح سيدي: "تعلمين جيداً أنني أكره القهوة الفاترة بالقشدة. تتعمدين ذلك من أجل أن تفسدي عليّ نهاري". فأجابته سيدتي: "نعم، فعلت ذلك لإغاظتك". نهض سيدي بصعوبة وحاول ضرب سيدتي. قذف كوب القهوة بالقشدة في وجهها. فبادلته بقذفه بوعاء القهوة الذي تمكّن من تجنبه. هنا، كان لا بدّ من التدخل. كانا يصيحان بالعربية، وبالإسبانية، وبالفرنسية. لم يسبق أن رأيت شجاراً بمثل هذه الحدة. والداي لم يكونا يرفعان الصوت قطّ. كان والدي يطيع والدتي بهدوء. كان كلّ منهما يؤدي دوره. هنا لديّ انطباع بأنهما يؤديان دوراً في مسرحية رديئة كتبها مؤلف شرير. هما يثيران شفقتي. كان لا بدّ من استدعاء آدم، ابنهما البكر. جاء مغتاظاً.

اغتنمت الفرصة فبدأت تنظيف هذا القبو الذي يستخدمونه كغرفة

معيشة. فتحت النافذة الوحيدة، ونظفت السجاد، ونفضت الفُرش، ورتبت الطاولة التي يستخدمها سيدي كمكتب له. جمعت الصحف والكتب. رميت علب الأدوية الفارغة.

نحو الثانية عصراً، طلب مني سيدي أن أساعده على الخروج. دعاني إلى الغداء في مطعم ياباني صغير. لم تكن لديه شهية للطعام. كان عليّ تناول أطباقه. لدى عودتنا خلد إلى النوم. استدعتني سيدتي إلى المطبخ كي أسرد عليها ما فعلناه. كانت تعلّق بترداد: "الحقير، الأناني". لم أكن أجيب. فصاحت بي: "هل تعتبر نفسك منظمة الأمم المتحدة؟"

– لا، سيدتي، لقد علموني ألا أتدخل مطلقاً في ما لا يعنيني.

أمام هذه الكارثة الجديدة، شجعهما ابنهما على الانفصال. كانت المرة الأولى التي يتجرأ فيها على اقتراح هذا الأمر على والدته. استهولت سيدتي الفكرة وغابت عن وعيها. فقال سيدي للتو: "لا بأس، ليست هذه سوى مسرحية".

كثيراً ما أتساءل عن الظروف التي قادتني إلى هذا المكان حيث وجدت الطعام والمأوى في مقابل خدمة شخصين لا يحتمل أحدهما الآخر.

ابنهما المحبط غادر وهو يدمدم. وقد وجد الوقت لشكري على ما أفعله لوالديه.

شعرت بصعوبة في النوم ليلاً. وسألت نفسي كيف لمثل هذا الحقد أن يستوطن شخصين لا شك في أنهما كانا سعيدين. لماذا لا يحتمل أحدهما الآخر؟ من أين يأتي هذا الجحيم ولماذا لا

وجود لأيّ حلّ؟

حتى لو تخليت عن فكرة الهجرة إلى أوروبا، فإنّ الرغبة في الانتقال إلى مكان آخر تلحّ عليّ. لكن ليست لديّ الجرأة على ترك هذين العجوزين المسكينين ينهبان بعضهما بعضاً وحيدَين. واجبي أن أساعدهما.

صبيحة اليوم التالي، بعدما أنهيت التسوق والأعمال المنزلية، خرجت لجولة في المقابر لأتسقّط أخبار رفاق البؤس.

ديالو غادر على متن زورق، ولا أحد يعلم هل نجح في العبور أو كان نصيبه الغرق. أخيراً، أجرت الشرطة دهماً واعتقلت ثلاثة شبان جدد يرجّح أن يكونوا ماليين. قال لي الحارس إنّ الملك كان قد قرر إعطاء الأفارقة أوراقاً. ونصحني بالحضور إلى المديرية في درادب. لم تكن لديّ ثقة.

عدت إلى المنزل حيث كان العجوزان ينامان على ما يبدو.

سيدتي لم تحب الفاكهة والخضار التي اشتريتها هذا الصباح.

– غالية الثمن وليست جيدة!

– هذه هي السوق، سيدتي، لا أستطيع شيئاً. بإمكانك الذهاب والتأكد من الأسعار.

– هكذا إذن!

اليوم هو يوم الأطباء. كان عليّ مرافقة سيدي إلى مستشفى السلام لإجراء مجموعة فحوص. الأطباء، كما الجهاز الطبي، لطيفون. أمين الصندوق وافق على قبض شيك، وهو ما كان يرفضه عادة. طبيب القلب قلق. كاحلا سيدي تورّما من جديد. قال لي كأن الأمر بيدي:

"عليه بالمشي. اجعله يمشي ساعة كلّ يوم، هذا مهم". أومأت برأسي وعدنا إلى البيت بسيارة أجرة.

في مدرستي في نواكشوط، تعلمت العربية الفصحى. منذ وجودي في هذه البلاد وأنا أتدرّب كي لا أنساها. لكن المغاربة يسخرون مني ويصححون لي كلماتي كلّ الوقت. فانتقلت مباشرة إلى اللهجة الدارجة وهي أقلّ صرامة من العربية الفصحى.

أتحدث مع سيدتي بمزيج من العربية والفرنسية. فتجيبني دوماً باللهجة الدارجة فلا أفهم أحياناً كلماتها. هكذا اشتريت منذ أيام جزراً. بالنسبة إليّ الاسم بالعربية "خيزو". هي تسميه "جعادة". الحقيبة تسميها "شنطة" وأنا أسميها "ماليتا" أو "فاليزا". هكذا أعلم نفسي طوال الوقت وأنا أحاول إيجاد الحلول لتلطيف الجو بين هذين العجوزين. تكوّن لديّ انطباع أن هذا النشاط اللغوي كان يريحهما.

حين أخرج بسيدي أشعر به أقلّ تعاسة وحتى أقلّ معاناة للمرض. نجلس على مصطبة Café de Paris حيث هو معروف. يطلب لنفسه قهوة حارّة بالقشدة، ولي عصير برتقال، ويراقب المارة. المكان على ما يبدو شديد الازدحام. وبعد لحظات يقول لي: "تسعون!"

– تسعون ماذا؟

– تسعون فتاة وسيدة محجّبة من أصل مئة. أحصيتهنّ. يغطين رؤوسهن بحجاب يمنع شعرهن من التنفس. هذه مأساة. ذات يوم سيكتشفن أنهن أصبحن من دون شعر. هذا كله حديث العهد. في السابق، كانت النساء تضع حجاباً لا يتجاوز مستوى الأنف، وهذا كلّ شيء. اليوم، يعلنّ بمظهرهن انتماءهن إلى إسلام متشدد كي لا

يتعرضن لمعاكسة الرجال. كما كان الأمر في زمن النبي.

– لم نعد نحن في زمن النبي!

– بالتأكيد، لكن الجهل هو المسيطر. سأسرد لك حكاية الحجاب، وقد ورد ذكره في سورة "الأحزاب". كانت نساء يخرجن ليلاً للتسوق. ولأنّ الطقس كان حاراً، كنّ ينتظرن مغيب الشمس للخروج. فكان الرجال يعاكسونهنّ ظناً منهم أنهنّ نساء مبتذلات عاهرات. إحداهن رفعت شكواها إلى النبي محمد الذي أنزلت عليه عندها هذه الآية: "يا أيها النبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين". كلّ الباقي مخالف للشرع.

بعد قليل، سألته هل زوجته وابنته التي حدثني عنها ذات مرة ترتديان الحجاب.

ضرب الطاولة بقبضته حتى كاد يقلب كوب القهوة: "لا تتحدث ثانية عن ابنتي! أبداً!"

اعتذرت ولم أعد أتفوه بكلمة. جاءه النادل بكوب جديد من القهوة الحارة بالقشدة. تناول منه جرعة أو جرعتين، ثم قال لي: "زوجتي تستر شعرها دوماً، حتى لو كنا وحدنا في المنزل. حين كنا نذهب في إجازة إلى إسبانيا، كانت تتبدل تبدلاً تاماً. تتخلى عن الجلابية والحجاب وكل ما يدلّ على أنها مسلمة. كانت تتحول أوروبية أخيراً، وتحاول التصرف كما لو كانت إسبانية. فتبدو المسكينة سخيفة. لكن على الأقل كان في إمكاني رؤية شعرها تطيره الريح. لدى العودة إلى البلاد، كانت تعود قبيحة من جديد، لأنّ من

مهمة الحجاب تقبيح النساء كي لا يقربهنّ أيّ رجل. زوجتي ليست في حاجة إلى الحجاب لإخافة الرجال، والدليل: تكاد تبلغ الثمانين من عمرها ولا أزال أخاف منها! تصوّر!"

لم أجرؤ على سؤاله لماذا يبقى معها. لكنني فهمت أنّ شيئاً ما يجعلهما أسيرَي هذه العلاقة السامة. لكن ليس هذا من شأني. أصمت وأعمل.

٢٧

سامية

٢١ نوفمبر ٢٠٠٠

كل شيء مشوش في ذهني. لم أعد قادرة على رواية ما جرى لي. أعود إلى البداية.

المرة الوحيدة التي دخلت فيها إلى شقة "الخنزير"، كما سميته، وجدتها معتمة للغاية. الستائر كانت مسدلة. رائحة عطر هندي كريهة يعبق بها الهواء. كان هناك العديد من الأشياء. سجاد داكن يغطي الأرض، طاولات صغيرة غريبة في كل مكان، قطع قماش معلقة على الجدران. جوّ خانق. كدت أنهض وأغادر. لحظة هممت بتناول حقيبتي احتجزتني يد شبه معدنية. لم يعد في إمكاني التحرك ولا النهوض. كان يسيطر عليّ وشعرت بنفسي صغيرة جداً. تملكني الخوف. شغّل موسيقا لرافي شانكار جعلتني أبتسم. ثم قدّم إليّ كوب شاي قررت ألا أشربه. جلس إلى جانبي بهدوء وفتح ملفاً أزرق.

كانت تعبق منه رائحة القِدم. كانت له رائحة فم خاصة بالعجائز الذين يهملون أنفسهم.

– قصيدتك رائعة. لديك موهبة لا تقدر بثمن، حتى لو أنني اكتشفت بعض الأخطاء. سندرس كل هذا. اقتربي ولا تخافي. في الشعر، يسود معنى التواصل. إذن، اتركي نفسك على سجيتها. قلبك حدثني، وعلى قلبي أن يجيبك، فاقتربي لتسمعيه.

مجرد أن يتعامل شخص ما بمثل هذه الجدية مع ما كنت أكتبه منحني الانطباع بأنني شخص على قدر من الأهمية. كنت أكتب في العزلة، لكن أملي كان في مشاركة كلماتي، وأن يقرأني الناس ويعترفوا بي. الخنزير كان يلبي هذا التوقع العميق، حتى لو كان يثير فيّ الانزعاج. بتّ أشعر أن الهرب كان مستحيلاً. كان قد خطط لكل شيء. الجزرة والعصا.

كلما أمعن في القراءة، كنت أشعر بجسده المتيبّس يقترب مني. دفعته عني بلطف. اعتذر وتابع التعليق على شِعري.

– يجب أن تشربي هذا الشاي الذي حضّرته بنفسي وأضفت إليه أعشاباً مفيدة جاءتني من مناطق بعيدة جداً. صديق جاء بها من الهند ولا أشرب سواها.

قرّبت الكوب من شفتيّ وتناولت جرعة كدت أبصقها مباشرة. ابتلعت الجرعة بصعوبة ووضعت الكوب على الطاولة الصغيرة المنخفضة. أعتقد أنّ القليل الذي شربته فعل فعله. بدأ رأسي بالدّوار، وشعرت بإرادتي تخذلني. فقدت القدرة على التحكم في نفسي. سمعته يقول لي: "دعي نفسك على سجيتها، ثقي بي، سترين، أنا

رجل رقيق ولطيف...".

استولى الخنزير عليّ وما لا أزال أذكره هو هذا الألم الذي تسبب فيه مرفقاه وأصابعه في جسدي. لكأنها وخزات إبر أو مسامير. قاومت. كان أقوى مني. كان يعرف كيف يثبّت جسداً ويفعل به ما يشاء. اكتشفت أنه اختصاصيّ. تمكنت من الإفلات لحظةً وتسديد ركلة قوية إلى معدته. تراجع وبدأ يصيح متوعداً. كنت لا أزال في وعيي. تضرعت إلى الله وإلى أوليائه ليخلصوني من أنياب هذا الحيوان المسعور. استدعيت أيضاً لمساعدتي أمي وأبي. أقحم قطعة قماش في فمي. شعرت بأنني سأختنق. صفعة هائلة ألقت بي أرضاً حيث ترقد نصوصي مجعلكة وممزقة. المعركة أضحت من دون جدوى. فقدت وعيي. أما الله وأنبياؤه ووالداي والجيران... فقد تخلوا عني جميعاً.

الباقي، ما جرى حين كنت فاقدة الوعي، لا أستطيع وصفه. حين استعدت وعيي، كان لا يزال بجانبي يضحك ويشرب الكحول. ظننت أنني سمعت شيئاً مثل: "النشر يقتضي الدفع. أخذ وعطاء".

عندئذ تقيأت على قدميه اللتين كانتا تشبهان الكلّابات. صرخ وسدّد إليّ صفعة أخرى.

أمسكت بطاولة الشاي الصغيرة ورميتها في اتجاهه بكلّ قوتي. تجنبها لكنه وقع مصطنعاً الألم. فجأة لمحت سكيناً ضخمة على حافة طاولة المطبخ. أدرك أنني رأيتها. أسرع وأخفاها في خزانة. لم يعد أمامي سوى مشغّل الأسطوانات لرميه به. وهذا ما فعلته. أشبعني ضرباً وهنا اكتشفت أنه اغتصبني ثانية. كان هناك دم بين ساقيّ، على

السجادة الداكنة، وعلى قصائدي المتناثرة على الأرض. ترنّحت وتمسّكت بالستائر ووجدت نفسي على بعد خطوة من الباب. تناولت قفلاً كان موضوعاً على المدخل ورميته به على خصيتيه. انطوى على نفسه من الألم. تناولت المفاتيح. فتحت الباب وبدأت أركض وأنا أصرخ طلباً للنجدة. لم يستجب أحد لندائي. وجدت نفسي على هذه الهيئة نحو الثامنة ليلاً. شارع غويا. لحظة خروج الناس من السينما. كنت أبدو كالمشردة. كان الناس يرمونني بنظرات مستنكرة.

جسدي خرج عن سيطرتي. لم يعد ملكي. لم أعد أشعر به. انقضّ الوحش عليه كخنزير يتضوّر جوعاً، كضبع جريح، كشخص مبتذل تجرّد من إنسانيته. لا أزال أحمل داخلي رائحة أنفاسه الكريهة وأسنانه الصفراء وعينيه الصفراوين أيضاً. إنني ملأى بالأقذار، ومثقلة بالنفايات المبتلعة أثناء الاغتصاب. مثقلة ببوله وبلعابه وبرازه. إنني صندوق قمامة وما عليّ سوى انتظار عمّال النظافة ليحملوني ويرموني عند منحدر الجرذان والجثث العفنة.

لدى عودتي، لم يكن والداي، لحسن الحظ، في المنزل. لعلهما كانا في زيارة إلى أحد الأقارب. كانت لديّ رغبة في الموت مباشرة. لكن لا بدّ، قبل ذلك، من تنظيف نفسي من كل هذه القذارة. الموت أو العودة إلى الخنزير لقتله. فكرة الموت كانت في كلّ مكان. يجب على أحدنا أن يزول. وفيما أنا أغتسل، كنت أستعرض خططاً لتنفيذ جريمة مثالية.

فركت جسدي كثيراً بالصابون، مرات عدة. كنت أشعر بنفسي

قذرة، شديدة القذارة، من الخارج والداخل. لم أكن أعرف كيف أتخلص من هذه القذارة الخنزيرية، من رائحة العفن مضافاً إليها رائحة أنفاس العجائز القذرة. وبعد ساعة شعرت بالتعب الشديد وقررت أن أنام.

ارتميت على السرير ونمت كحيوان جريح. نوم مضطرب. كنت أطلق صرخات. وأتعرّق. في الصباح، كنت متمددة على الأرض. سقطت عن سريري من دون أن أشعر. روحي كانت في حالة تثير الشفقة ممزقة إلى أشلاء.

في اليوم التالي، وكان الأحد، طلبت من أمي أن تصحبني إلى الحمام آملة أن توافق فكريّة، المدلّكة السوداء، على كشط جلدي حتى التخلص من كلّ ما يلوثه.

الألم الجسدي والنفسي أضيف إليه شعور العار. العار والصمت. الامتناع عن التفوّه بشيء. الاحتفاظ بكلّ شيء لنفسي. لم تكن لديّ الجرأة لرواية ما جرى لي. دلكتني فكريّة طويلاً بكثير من العناية. وأشارت أمي إلى أنّ الجلد لشدة ما يكشط سيزول تماماً.

نعم، لكم أردت تبديل جلدي! استبدال هذا الجلد الذي عانى الأهوال بآخر جديد، جديد تماماً.

أمضيت بقية الأحد في غرفتي أكتب أشعاراً باهتة. كانت تعوزني الكلمات لوصف ما عانيته. توقفت عن الكتابة وبدأت قراءة جيرار دي نيرفال Gérard de Nerval.

أقول لنفسي إنني من الحياة
لا أعرف شيئاً

ربما انتعاش الريح
انتظار الحب
الحاجة إلى إفراغ جسدي من كلّ دموعه
لأكون خفيفة
أركب الحصان
وأنطلق للركض على الرمال
والعينان مغمضتان

٢٨

مراد

ذكرى تطاردني. تعاودني كلّ مرة بالدقة نفسها: الصور، الحركات، الغضب ممزوجاً بالخزي والخوف. أسمع من أعماق سريري الذي ازداد تقعّراً مرارة هذا الصباح من ديسمبر. شيء يضغط على حلقي ويدفع الدم البارد في عروقي.

ترقى هذه الذكرى إلى الحقبة التي كنت أتلقى فيها مغلفاتي الأولى. لست أدري لماذا، لكنّ المقاول كان قد دسّها في كتاب طبخ صيني. قال لي: "هذا هدية لزوجتك. ستحضّر لك أطباقاً شهية. يكفي أن تفتح الكتاب وتطبّق التعليمات..."

اعتاد زملائي أن يتلقوا أموالاً قذرة. لا يبدون أيّ ردّ فعل ويتظاهرون بأنهم منشغلون بملفاتهم.

حملت الكتاب إلى البيت وسلّمته لزوجتي. لم تخمّن ما داخله واعتقدت أنّ كتاب الطبخ كان طريقة لوم مقنّعة. فقالت لي: "ألم تعد تحب طبخي؟ تريدني أن أنتقل إلى الطبخ الصيني؟"

حين فتحت الكتاب، وقع المغلف أرضاً وتناثرت منه الأوراق النقدية. فانفجرت ضاحكة وقالت لي: "تعال لأقبّلك، أخيراً بدأت تصير رجلاً، رجلاً حقيقياً".

لم أجب. تجاهلت الأمر وخفضت بصري. أن تكون رجلاً! رجلاً حقيقياً! ماذا يعني ذلك؟ أن يكون لديك مال؟ وخصوصاً المال القذر! بالنسبة إلى العديد من أبناء وطني المال والقدرة الجنسية يسيران جنباً إلى جنب. عن الرجل الثري، يقولون: "هو في صحة جيدة". في هذه الحقبة، نظراً إلى ما يقولون، لم أكن إذن في صحة جيدة ما دام راتبي لم يكن يكفيني حتى نهاية الشهر.

لم يعد ذلك بالنفع على حياتي الزوجية. كلما اكتفت مليكة مادياً، ازدادت كبتاً. أما بالنسبة إليّ، فكلما كثر تقبّلي الرشوة، قلّت رغبتي فيها. مضى على زواجنا أكثر من سبع سنوات. لكن انتصابي لم يعد صلباً. لست أعرف السبب. حين ندخل إلى الفراش، لا أتوقف عن التفكير في الأوراق النقدية التي سقطت من كتاب الطبخ الصينيّ. كانت تتهمني بالخيانة، في حين أنني لم أكن أعاشر نساء أخريات في تلك المدة.

– أنت شاب؛ يجب أن يكون لك انتصاب ثور، وهنا ما الذي تفعله معي؟ هل تسخر مني، من هي عشيقتك التي تمتصّ طاقتك كلّها؟

– ليس لديّ عشيقات. وما يجري يثير دهشتي أوّلاً. يجب أن أستشير طبيباً. أعدك.

إن كنت قد أصبحت فاسداً، موظفاً صغيراً من الفئة الثالثة يكمل

شهره بالدوس على كرامته، فذلك بسببها. في كلّ مرة تعود من الحمّام، كنت أتلقى درساً من أخلاقها الحسنة: "يجب ألا تشعر بالذنب. إنك لا تقترف سوءاً. أنت تتكيّف مع مجتمعك. إن كان هذا المجتمع فاسداً، فالذنب لا يقع علينا. فتوقف الآن عن ترداد 'ضمير تعِس'. أنت ككل الناس، رجل يتمّم راتبه بالتنقيب في جيوب أولئك الذين هم في حاجة إلى توقيعك. هذا كلّ شيء. إنني واثقة أن هذا الضمير اللعين هو الذي يمنعك من الانتصاب. جهدٌ واحد بعد، أيها السيد نزاهة!"

أحيل أحد زميليّ إلى التقاعد. كان قد بذل كلّ ما في وسعه للاستمرار في العمل سنة أو سنتين إضافيتين، وإلا فانقطاع المغلفات بالنسبة إليه. لكنّ الأمر حُسم نهائياً الآن. كان شديد التعاسة، وبالغ الضيق، إذ شعرنا بالحاجة إلى مواساته. بدأت بدوري أحصي السنوات التي تبقت لي قبل بلوغ الستين. خمس سنوات بعد! خمس سنوات يتحتم عليّ خلالها بذل جهد مضاعف كي لا أجد نفسي مثل جاري في مواجهة واقع كان غائباً عن نظري. ببلوغه التقاعد، اكتشف هذا الزميل أنّ لديه قروضاً عليه تسديدها، ولم تعد لديه الإمكانات لذلك إطلاقاً.

مع الوقت، كنت قد أصبحت مواطناً صالحاً، واحداً من هؤلاء المغاربة الذين يمضون حياتهم في ترتيب أمورهم. كنت أقول لنفسي: رتبت أموري مع كلّ شيء، مع الأخلاق، مع الضمير، مع الدين، مع الله، مع الآخرين، لكنني لم أستطع أن أرتب أموري مع زوجتي.

صورتي لم تعد مشوشة كمثل ما كانت أول عهدي بالوظيفة. الآن هي واضحة ومحددة. إنها صورة وغدٍ مكتفٍ، مغربيّ صالح فاسد وخائن. عليّ ليس تعود هذه الصورة فقط، بل أن أجدها أيضاً عادلة وشرعية.

زوجتي التي تضاعفت وساوسها كانت مقتنعة بأن الفاجعة التي حلت بنا كانت عقاباً من الله. لا أتدخل في هذا النوع من التفكير. كنت أستمع لها ثم أفكر في أمر آخر.

بعد هذه الفاجعة، لم يعد لحياتي معنى ولا قيمة. بقدر ما تكون شخصاً، كائناً من كان، مع كمية كبيرة من التفاهة وقليل من الابتذال وكثير من اللامبالاة، تكون مثل العدد الهائل من المواطنين الذين، رغم ذلك، لا يبدون شكاواهم.

٢٩

سامية

٣ نوفمبر ٢٠٠٠

وجودي خطأ. أنا محقة في رغبتي في الرحيل. لا علاقة لله بها، ولا لأبي وأمي. مذ أدركت أنه لم يعد لي مكان هنا، شعرت بنفسي خفيفة ومستعدة للرحيل. تراودني منذ مدة طويلة أفكار حول الحياة والموت. كنت تعِسة ولم أكن أقول شيئاً. كان صمتي ملجئي وخلوتي. كنت أتساءل معظم الأحيان عما جئت أفعله في هذه العائلة حيث لا شخص فيها في مكانه. والداي، وخصوصاً والدتي لأكون أكثر إنصافاً، كانا عبيد التقاليد بكل ما فيها من تخلف وحماقة. ثم إن هوسها وخرافاتها كانت تتعبني. العالم في نظرها منقسم بين أصحاب العين الشريرة وأولئك الذي يقعون ضحيتها. وبالطبع، كانت تصنّف نفسها في فئة الضحايا. لم أكن أفهم كيف أنّ مجرد نظرة يمكنها أن تتسبب في مرض أو بؤس.

ربما كان الحب يسود علاقتهما عندما ولدت. يبدو لي أن الحنان كان قائماً بينهما، وعلى الأقل مزيج من المشاعر واحترام التقاليد. لكن ما لم أكن أحتمله هو علاقتهما بالمال. والدتي كانت قد ورثت عن والديها البخل. وهي تعيد هنا إنتاج الجو الذي نشأت فيه.

هكذا، أثار تجديد سخّان الغاز في المنزل دراما نفسية عائلية. كانت أمي تفضّل السخّان الصيني، الأرخص ثمناً بكثير. والدي كان من رأي السبّاك الذي نصح بسخّان ألماني، الأمتن بكثير والأوثق. وقد تحدثت الصحف عن عدد من الأعطال والتسرّب في النماذج الصينية. كان من شأن ذلك أن يحذّرهما. لم تكن والدتي مستعدة لسماع شيء. عندئذ فضّل والدي الرضوخ تجنباً لمواجهتها. كان يذهب إلى مكتبه، ويلتقي أصدقاءه ثم يعود إلى المنزل كمن يدخل سجناً.

كشاهدة خرساء على هذه المأساة، كنت أرى نفسي كخطأ في هذه العائلة. كنت أقرأ سرّاً *De l'inconvénient d'être né* **[مثالب الولادة]** لإميل سيوران Emil Cioran، كتاب جَيب مستعمل اشتريته من الكتب المعروضة على أرصفة المدينة القديمة. كانت سطور الكتاب مخططة تقريباً بالكامل. كان لشخص يدعى غيّوم. كمية الوضوح كانت تسحرني، فكنت أنسخ بعض العبارات في دفتر مذكراتي. لكنّ رغبتي في الرحيل لم تكن بسبب ذلك الكتاب. عطر الحرية يقودني. أغمض عينيّ، لا أستفزّ شيئاً. الباقي لن يكون من شأني.

والداي تغيبا بعد هذا الظهر. أنا وحيدة في المنزل. جالسة إلى طاولة المطبخ، أصغي إلى الشعر الذي يفرض نفسه عليّ بجلاء تام.

أكتب وأنا أدرك أنها ستكون على الأرجح الصفحات الأخيرة من مذكراتي وقصائدي النهائية. لا أستطيع تفسير هذا الإحساس الذي اعتراني، لكنني مقتنعة به في أعماق نفسي. الكلمات تتدافع في رأسي. كلمات وألوان. لو كان في متناولي أصباغ وريَش، لرسمت لوحة هائلة.

الرجل كان قبيحاً وناحلاً نحولاً مرضيّاً. نظرته من خلف نظاراته المزدوجة البؤرة تخترق صدارات الفتيات وتعرّيهن مباشرة. كانت له أساليبه وأفخاخه التي أردت معاينتها عن قرب. في الثانوية، كنا نتبادل الحديث عن هذا الغول الذي يحوم حول الفتيات الصغيرات. لم نكن نتخيّل ما كان يفعله. نوع من اللغز الآسر. كنت أظن نفسي قوية ومراوغة، وأقول لنفسي إنني لن أسقط أبداً في براثنه. كانت لديه صحيفة، تلك الصفحة المطوية نصفين التي ينشر فيها قصائد ضحاياه. أنا أيضاً كنت أريد نشر أشعاري، وراغبة في رؤيتها مطبوعة. أعرف أن هذه الورقة لا توزع إلا في طنجة، في بعض أكشاك بيع الصحف. كان لا ينشر إلا قصائد الفتيات المراهقات، ومن بينها قصائد ابنة عمي، ويتجاهل كتابات الفتيان التي كانوا يعرضونها عليه.

أوقات فراغي كنت أمضيها في القراءة. كنت أقرأ كل ما يقع تحت يدي. حتى أنني قرأت كتاباً ضخماً عن النحل. لكنني كنت أفضّل قراءة الشعر، وأحفظ عن ظهر قلب أبياتاً لرمبو وفيرلان Verlaine. وكنت أنسخ في دفتر مذكراتي مقاطع من بودلير. هذه القراءة الدؤوبة تؤدي بطبيعة الحال إلى رغبة في الكتابة. كنت ساذجة لكن صادقة.

عرضت ذات مرة أشعاري على معلم الفرنسية. ألقى عليها نظرة، ثم مطّ شفتيه بطريقة غريبة وأعاد إليّ دفتري. شعرت بالإذلال، وتملكتني رغبة في البكاء. يا للجنون! كيف يمكن اغتيال شخص بمطة شفة. ذلك اليوم شاهدت "الناشر" الرهيب لورقة الشعر. تقدّم نحوي كأنه على علم بأن أستاذي أذلّني. مدّ إليّ يده كمن ينتظر أن أقدم إليه شيئاً. قال لي: "أريد قصائدك". ومن دون تفكير، أو تردّد، وضعتها بين يديه الضامرتين ذات الأصابع النحيلة.

في اليوم التالي، كان مجدداً أمام الثانوية، بجانب شارع تولستوي، ساعة انصراف التلاميذ. اقترب مني كأنه فرد من العائلة، وقال لي: "قصائدك جميلة جداً، علينا التحدث في شأنها. هل لديك متسع من الوقت غداً السبت نحو الخامسة؟ أسكن فوق مقهى بورت Porte، هل تعرفينه؟ الطبقة الأولى، الباب أ".

في الليل، كنت موزعة بين الإثارة والحذر. هذه الشخصية الرهيبة كانت تخيفني. لكنني كنت أشعر بنفسي قوية بما في الكفاية لمقاومة عنفه. وجهه القاتم والمتيبّس يفضح روحاً مظلمة وشريرة.

خوف حاسم يتمزّق
يتساقط إرباً على قدميّ العاريتين
نحو المجهول أفرغ الدموع
فتاكة، والعينان معصوبتان

٣٠

فياد

هذا الصباح رافقت سيدتي إلى المقبرة. طلبت مني تنظيف ضريح. ما إن جلست على شاهد القبر المجاور، حتى بدأت البكاء والكلام معاً، كأن الراقد تحت التراب كان هناك يسمعها. أدركت أنه ضريح ابنتها. كانت تقول: "كما ترين، يا ابنتي، لن أستطيع أبداً أن أنساك. جئت أراك وأخبرك بما يجري في البيت. أنا مريضة وأتناول أكثر من عشرة أنواع من الأدوية في اليوم، بعضها لمعالجة الجسد، وبعضها الآخر لمعالجة حزني والتعاسة التي أحملها معي منذ زمن بعيد. شقيقك آدم لديه مشكلات كبيرة في عمله. في إمكاني مساعدته ودعمه، لكن زوجته الغيورة والأنانية لا تسمح له بزيارتنا. والدك بدوره مريض، لكنه يبالغ. يظن أنّ تعبه أكبر من تعبي. هو دائم التذمر. ولا يعرف السرور أبداً. أبذل ما في وسعي لتخفيف ألمه، لكنه شرير، وليس لديه أيّ حنان تجاهي. لا يفكر إلا في نفسه. يخرج أحياناً من المنزل ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل. لا أطرح أسئلة. أراقب حياتي

تمرّ بشقاء وأشكر الله، على الأقلّ هو، أقصد الله، يعلم كلّ شيء. هو قادر ورحوم، ويعلم حقيقة كلّ منا. أنتظر أن ينصفني. حياتي، حياتنا، تحولت أولاً إلى صحراء ثم إلى جحيم. الشعور بالذنب. هذا ما يقوّض حياتنا. أشعر بالذنب. والدك يشعر بالذنب. ونلوم بعضنا بعضاً على ذلك، ويزداد الثقل أكثر فأكثر حتى يستحيل احتماله. ثمة ما هو قبل وما هو بعد ذلك اليوم المشؤوم حين ذهبنا لحضور خطوبة ابن عمك في تطوان. أنت كنت تريدين البقاء وحيدة. كنت تريدين أن تأخذي وقتك في الاستحمام وإتمام واجباتك. أتوقف هنا، لأنني لم أعد أستطيع الكلام".

توقفتْ للحظة، وأعطتني قطع نقود لأوزعها على المتسولين، ثم طلبت منهم الابتعاد وتركها في سلام. دفعتُهم إلى المغادرة. لم يرق ذلك لبعضهم فوجهوا إليّ بعض أدبياتهم: "عدْ من جديد إلى شجرتك، ستكون في حال أفضل مع الغربان! أن تُطرد على يد زنجي! يا للانحطاط!" المتسولون عند المقابر شريرون.

لم تنتفض لإهانات المتسولين وتابعت خطابها: "أنا أعلم أنك في الجنة. لا يساورني في ذلك أدنى شك. بريئة، وعذراء، ولطيفة وجميلة. أنت تستحقينها. بالنسبة إليّ وإلى والدك، لست أدري إن كان الله سيكون رحوماً. حياتنا تحولت جحيماً. أكرّر نفسي. أنا أعلم. لكن هي الكلمات نفسها التي تعاودني دوماً. رفضت طويلاً تقبّل الأمر، لكن لم يعد في إمكان الواحد منا تقبّل الآخر. منذ رحيلك البالغ العنف، والبالغ القسوة، فقدنا الرغبة في الحياة والحب. والدك يتدبر أمره مع الأخلاق ويفعل ما يحلو له من دون أيّ شعور بالذنب.

هو مقتنع بأنني السبب في رحيلك. كيف يمكن أن أكون أنا من عرّض حياة ابنتي الغالية للخطر؟ يقول إنه كان قد اختار السنّان الألماني الأكثر وثوقاً، وإنني، بهاجس الاقتصاد، اخترت الصينيّ. لعله على حقّ. لكنني لم أكن أعرف إطلاقاً أن هذه المنتجات الصينية كانت أجهزة موت. منذ ذلك الحين، لم يعد أحد يشتري هذا النوع من المنتجات".

بعد وقت طويل من الصمت والتأمل نهضت سيدتي مستندة إلى ذراعي. وألقت عليّ نظرة امتنان وقالت لي: "أنت طيب وصلب، أعلم أنني أستطيع الاعتماد عليك".

اغتنمت هذه الفرصة لأسألها هل تمكنت من الاتصال بابن أختها الذي يعمل في المديرية من أجل ترتيب وضعي. فقالت: "لقد نسيت. أعدك بأنني سأهتم بالموضوع ابتداء من الغد".

جارنا إلى الجهة الشمالية باشر أعمالاً جديدة في فيلّته. ضجيج الهدم والحفر يصمّ الآذان طوال اليوم. سيدتي تصرخ من الألم. وسيدي يضع الخوذة للاستماع لإعادة بث إحدى الحفلات الموسيقية على التلفزيون. بالإضافة إلى الضجيج الذي لا يحتمل، يتناثر حطام البناء على أرضية المنزل. أكثرت من التنظيف من دون جدوى. وبطلب من سيدتي، رحت أفاوض العمال للتخفيف من الضوضاء. استقبلوني كما لو كنت قذارة: إهانات عنصرية بالطبع، حركات سوقية، صيحات وضحكات. عدت خائباً. بالتأكيد، لا يملك المغاربة أيّ حسّ بالمواطنة. لا أقول إن الوضع في بلادي

أفضل لكننا نولي الآخرين بعض الاهتمام. علمت أن صاحب الفيلّا طبيب. لا يلقي بالاً لشكاوى الجيران. يحتقر الجميع. لا أريد أن يعالجني يوماً.

بعد انقضاء شهر على زيارة الضريح أعطتني سيدتي أوراقاً لأملأها من أجل تسوية وضعي. قالت لي: "أمر من جلالته! حفظه الله وأطال عمره!" لم أكن أدري أن جلالته كان على علم بحالتي.

أمضيت ساعات أدرس كلماتي وأنا أملأ المستندات. لم أكن أدوّن سوى الحقائق. دوّنت اسمي الحقيقي، وتاريخ ومكان ولادتي، وشهاداتي التي احتفظت بها بعناية في بطانة حقيبتي، ومراجعي. لعلني واحد من الموريتانيين القلائل الذين تمكنوا من الوصول إلى طنجة. حين انتهيت، كتبت بالقلم الرصاص: "يحيا الملك". لن يستطيع أحد أن يلومني على ذلك. فبعد كلّ شيء، يعود إليه الفضل في أن عشرات آلاف الأفارقة لديهم اليوم أوراق. بعضهم يعملون، وحتى أنهم تزوجوا بمغربيات. في اليوم الذي أحصل فيه على أوراقي، سأمضي وحدي إلى قبر سامية وأروي لها بدوري سيرة حياتي.

٣١

آدم

لو كان عليّ الاستماع لشكاوى والدتي جميعاً، لكنت الآن في مستشفى الأمراض العقلية. لكن هي أمي، وتربيتي تمنعني من معاكستها ومصارحتها بكل ما أفكّر فيه. حين أصل إلى المنزل، أبدأ تقبيلها، وكما تقتضي التقاليد، أقبّل يديها. والأمر نفسه مع والدي. هذا لا يمنع والدتي من مضايقتي ومضايقة زوجتي. ذات يوم أدركت أنها لا تحبّ أحداً. أنا من طبع متفائل. أحب الحياة، وأحب تلقي الهدايا وتقديمها، وأحب الضحك والنظر إلى الجانب الإيجابيّ من الأشياء. لكن لا شيء ينفع مع والدتي. أمّ يهودية حقيقية – قلت لها ذلك يوماً من باب الدعابة فتلقت الأمر بطريقة سيئة جداً، وكان عليّ الاعتذار لها وشرح التورية! – تريد إدارة كلّ شيء، ومراقبة كلّ شيء، والسيطرة على كلّ شيء. تفتقر إلى الحب. لم يعد والدي يحبها منذ زمن طويل. هذا ما يلاحظ مباشرة. هو في مكان آخر، في عالمه، بين كتبه وأفلامه وأسطوانات الجاز.

قبل أن تتراجع صحته، فكّرت في خطة تمكنه من تحقيق حلمه في قضاء ليلة بصحبة امرأة على شاكلة آفا غاردنر، ممثلته المفضلة. قبل أسابيع أعددت كل شيء بدقة. جهزت المال والمرأة والذريعة.

بالنسبة إلى المال، حصلت للتوّ على مكافأتي السنوية فقرّرت اقتسامها معه. بالنسبة إلى المرأة، ماريا كانت صديقة لإحدى صديقاتي، ولن ترفض رحلة صغيرة ممتعة إلى ماربيا مثلاً. تبقى الذريعة. لا يمكن أن تكون إلا صحيّة. أقنعته بالسفر إلى إسبانيا لزيارة الدكتور أزانكوت، طبيب المسالك البولية الشهير. لم أخبره بالطبع عن المرأة.

بقي فقط نيل موافقة أمي على سفره إلى ماربيا. المشكلة حلّت من تلقاء نفسها: جواز سفر والدتي كانت قد انتهت صلاحيته. والوقت الذي يتطلبه تجديده، إضافة إلى طلب التأشيرة، يستغرق وقتاً طويلاً. ثم استغللتُ الجانب الطبي، فزعمت لوالدتي أنّ عليه استشارة اختصاصيّ لمشكلات المثانة والبروستات وأن عليّ مرافقته لأنها مسألة تتعلق بالرجال. والغريب أنها لم تعترض. وافقتْ مع إبداء ملاحظة سريعة فقط: "ألم يعد في طنجة طبيب مسالك بولية؟"

– لكنهم ليسوا ماهرين، يا أمي!

في رصيف طنجة، حين عرّفت ماريا إلى والدي، وكنت قلقاً قليلاً، لم أكن أعرف كيف أوضح له الأمر. لكن ماريا تولت مباشرةَ المهمة بنفسها. وتمّ كلّ شيء على ما يرام. كان الطقس جميلاً. ماربيا جميلة في الشتاء. يهجرها السياح، وماريا قامت بدورها على أتمّ وجه. والدي بدوره أدرك الموضوع ولعب دوره كممثل حقيقيّ.

تسلّى، وأمضى وقتاً ممتعاً، واختزن قليلاً من الطاقة والشجاعة لاحتمال حياته في القبو.

كنت أنظر إليه وهو فرح ويشعّ نشاطاً وأقول في نفسي إنّ والدي كان يستحق هذه الهدية. لم يكن هناك أيّ سوء. تمضية يومين وليلة خارج المنزل العابق بالتعاسة والرطوبة المضرة لا يمكن إلا أن تكون مفيدة له. لم تكن والدتي على علم بشيء.

ماريا كانت رائعة. مرافقة رجل عجوز، ساحر ولطيف، رجل يحب النساء كثيراً، كان خدمة أدّتها لي بطيب خاطر. ذات يوم قال لي والدي إنه يعتبر أن فيلم فرنسوا تروفو L'homme qui aimait les femmes [الرجل الذي كان يحب النساء] من أجمل أفلام هذا المخرج وهو تحية جميلة للإغواء لم يجاره فيها فيلم آخر. كان مقتنعاً بأنّ هذا الفيلم صُوّر لرجال مثله. في نظره أن تكون مع امرأة حتى لو لم تكن هناك علاقة جنسية، ضرورة للحياة.

مع ماريا، لم يكن موضوع الجنس مطروحاً بالطبع. كانت في الخمسين، مطلقة ومن دون أولاد. علمت أنهما تنزّها طويلاً، وأنّ ماريا قامت بالتسوق، وأنّ والدي كان في أتمّ السرور من الصبح حتى المساء، لأنه كان قد نسي أنّ الحياة يمكن أن تختزن لحظات صغيرة من السعادة.

ضحكت وأنا أتخيّل السيناريو المشابه مع أمي. قاسية، ومن دون أيّ روح دعابة. كانت سترى في اقتراحي خطيئة لن يغفرها الله أبداً. ولنعتتني بالتأكيد بكلّ النعوت، ولاتهمت زوجتي بأنها وراء هذه الفكرة المجنونة والشيطانية! أن أدفعها إلى أحضان زير نساء أمر غير

مطروح بالطبع، وكانت فكرتي أن أمنحها بضعة أيام في مكان ما مع واحدة من رفيقاتها. لكن لم يكن لديها رفيقات. بحثت طويلاً عنهنّ ولم أجد. عدلت عن الفكرة في النهاية. كان هدفي أن أدخل بعض الهواء المنعش، بعض الحياة والفرح، إلى هذا القبو. معها لم يكن ذلك ممكناً بكل بساطة.

تساءلت معظم الأحيان هل هذا حقاً دور الابن في أن يؤمّن لحظات متعة لوالديه حين يبدأ الجسد بالتراجع. لم أعثر قطّ على جواب. على طريقتي، ومن دون أخذ الأمور بجدية مبالغة، حاولت كلما استطعت تجنب حدوث مأساة بينهما. لم أحدّث أحداً عن الموضوع لا زوجتي ولا أيّ شخص آخر. إنه سرّي وحدي.

٣٢

منصف

أنا الشخص الذي لا يظهر في هذه القصة. الشقيق الأصغر لسامية وآدم. تتبعت دوماً سليقتي، وفهمت باكراً أنني ولدت في عائلة يسري فيها الجنون، أو شيء ما غير سليم على أيّ حال. قررت النفاذ بجلدي من هذه اللعنة. الكلمة قاسية، صحيح، وأنا بلا شكّ أبالغ بعض الشيء.

لست حادّ الذكاء، لكنني أفهم الناس جيداً. لا شيء يجري بصورة طبيعية في عائلتي. ربما كان كلّ شيء يجري على ما يرام قبل ما يطلقون عليه اسم "يوم الفاجعة المشؤوم". على أيّ حال، أنا لا أذكر تلك الفترة. كنت في الثانية حين حدث ذلك. وفي المقابل، كانت طفولتي كلها مدموغة بتلك الحكاية التي كانوا يروونها من دون أن يسمّوا الأشياء على حقيقتها. يتركونني أخمّن ما جرى. يوم أتممت عامي السابع، وقع زلزال شمالي البلاد. شعرنا بهزّات في طنجة، لكنها لم تتسبب في ضحايا. في ذلك اليوم – يا للغرابة! – فهمت شيئاً عن الزلزال العائلي. لم أسعَ قطّ إلى المضيّ أبعد. فضّلت الرحيل،

أو في الواقع الفرار.

في العام الذي كنت أستعد فيه للبكالوريا، أجريت بعض الدراسات. كنت أبحث عن نقطة إنزال، بعيداً من العائلة قدر الإمكان. في البداية، كنت أحلم بأستراليا، وكنت أقول لنفسي: ليس هناك ما هو أبعد، إنها طرف العالم، هناك لن يبحث عني أحد. أستراليا هي البلاد التي كان يذكرها والدي غالباً حين كان الوضع في المغرب يسوء. إلى هناك، كان يجب أن أرحل. سريعاً تراجعت حين اطلعت على شروط الدخول إلى تلك البلاد، واكتفيت بحلم أكثر تواضعاً، ويكون خصوصاً قابلاً للتحقيق: كندا. بعد أسابيع عدة أصبحت على معرفة وافية بأحوال تلك البلاد: مناخها، تاريخها، مناظرها، اقتصادها، سياستها.

كانت الهجرة سهلة إلى تلك البلاد. بفضل ملفّي (تقدير جيد جداً في الرياضيات في امتحانات البكالوريا)، لم أواجه صعوبة في قبولي في إحدى الجامعات الكبرى، والحصول على منحة دراسية، وكذلك على تأشيرة دخول وبطاقة طائرة. حلم أضحى حقيقة. والدتي أمضت أياماً تبكي. حتى أنها غابت عن وعيها حين أخبرتها. والدي كان أكثر تفهماً. منحني بركته وطلب مني ألا أنساه. لذا، أمضي كل عام شهر أغسطس في طنجة. أنزل في الفندق وأخرج من وقت إلى آخر. في البداية، كنت أجيء مع زوجتي، وهي إيطالية التقيتها في تورنتو، لكن والدتي لم تكن تحبها، من دون سبب ظاهر. بعد ذلك فهمت. لا ضرورة لتعريض وضعي العائلي للخطر لأن والدتي تأكلها الغيرة.

أخي آدم يطلعني على ما يجري في العائلة. هي اللوحة نفسها

دوماً، "مستشفى وصيدلية"، كما يقول. نضحك، لكن أعلم أن الوضع مثير للشفقة. أعتقد أنني نجحت في النجاة بنفسي. أعيش حياة طبيعية. زواجنا مبني على الحب والاحترام.

ذات مرة، دعوت والديّ لتمضية أعياد نهاية العام في كيبيك. كانا يتجادلان طوال الوقت. لم تكن زوجتي تفهم لماذا يبقيان معاً ويتبادلان الأذى. كانت والدتي تشكو من البرد خاصة. والدي كان فضولياً بشأن هذه البلاد وتقاليدها.

حين غادرا شعرت بارتياح كبير. منذ ذلك الحين أصبحت علاقتنا نادرة. تباعدت الرحلات إلى طنجة، مرة كل عامين ثم مرة كل ثلاثة أعوام.

هذا أفضل بكثير. إنني الشخص الذي فضّل ألا يكون له موقع في هذه القصة. لاحقاً، حين قرأت مذكرات شقيقتي الكبرى الراحلة، بكيت.

٣٣

مراد

حين حدثني آدم عن زيارة الدكتور أزانكوت في ماربيا، شككت في أن شيئاً ما يتدبّر. لم أقل شيئاً. عندما صعدت إلى المركب المتوجه إلى الجزيرة الخضراء، قدمني آدم إلى ماريا وانسحب مباشرة قائلاً إنه تلقى اتصالاً من رئيسه، وإنه سينضم إلينا لاحقاً. لا يجوز أن نجعل الرئيس ينتظر.

وأنا أنظر إلى ماريا، فهمت مباشرة اللعبة التي رتّبها آدم وباركته مرات عدة. لن يستطيع أن يمنحني سروراً أكثر. كنت فرحاً ومتخففاً وفضولياً في أن أجد نفسي مع امرأة أنيقة ومتعاطفة. كانت تريد في البداية أن تؤدي دور الممرضة، فنصحتها مباشرة بالتخلي عن هذا الدور.

خلال الرحلة، ذهبت مرات عدة لتحضر لي الشاي، وجاءتني بالكرواسان وحتى بكيس من اللوز المحمّص. كانت تعلم، أو على الأقل آدم هو الذي أعلمها، أنني أحب اللوز المحمّص. هي التي

ملأت بطاقة المعلومات باستخدام جواز مروري أمام شرطة الحدود، ولما غادرنا المركب، كانت هي أيضاً التي شبكت ذراعها بذراعي كأننا زوجان طبيعيان. في المغرب فارق العمر بين الزوج والمرأة نادراً ما يثير التعليقات. نرى معظم الأحيان رجالاً تجاوزوا الستين مع نساء أصغر منهم بكثير ويمكن بكلّ سهولة أن يكنّ في عمر بناتهم. العكس لا وجود له، باستثناء بعض النساء الأجنبيات الثريات اللواتي يتخذن لهنّ رفاقاً من الشبان الوسيمين.

أخذنا أماكننا في الحافلة التي تقلّ الركاب بين الجزيرة الخضراء وماربيا. شعرت كأنني في إجازة، وهذا ما لم أحصل عليه منذ عشرين عاماً. ماريا الساهرة دوماً على متطلباتي كانت تبدو سعيدة بدورها في هذا المهرب. كانت مقلّة في الكلام، لكنها تبتسم في الغالب. علمت أنها مطلقة وأنها لم تتزوج ثانية.

غرفة الفندق كانت فسيحة. لاحظت مباشرة وجود سريرين تفصل بينهما منضدة صغيرة. غرفة الحمام مطابقة تماماً لما أحب. فسيحة، وأرضها مانعة للانزلاق، والمناشف نظيفة وسميكة. أفكر الآن في الحمام الذي سأمتع نفسي به نهاية اليوم بوضع مستحضرات الرغوة التي تمنح الانطباع بالطيران فوق سحابة صغيرة.

وضّبت ماريا أغراضي في الخزانة وأخرجت الحقيبة الصغيرة التي تحتوي على أدويتي. التفتت إليّ وقالت بصوت ناعم: "آمل أن تكون بخير، ولا ينقصك شيء. سأنتقل إلى غرفتي المجاورة لغرفتك".

لم أقل شيئاً. في الواقع، كان ذلك يناسبني. فأنا أنهض كثيراً في الليل لدخول الحمام، كما أن نومي مضطرب إلى حدٍّ ما.

كنت سأكون محرجاً جداً لو تسببت في إيقاظ هذه المرأة الرائعة والمبتسمة. على أيّ حال، أحب النساء حتى لو لم أنم معهنّ. مجرد أن أعرف أنّ في الغرفة المجاورة لغرفتي ترقد امرأة لطيفة وودودة ذلك يسعدني. كنت واثقاً بأنني سأنام جيداً هذه الليلة. وجودها يمدّني بخير لا حدود له.

تمددت على السرير وأنا لا أزال بكامل ثيابي، وغفوت مباشرة، ما يدل على أنني كنت في غاية الاسترخاء. أحب هذه اللحظات بين اليقظة والرقاد حيث يستريح الجسد من دون أن يغرقك في ليل عميق. استيقظت على رنين الهاتف. كان آدم يرغب في أن يعرف هل كل شيء يجري على ما يرام. طمأنته وشكرته على هذا الاهتمام الذي يسعدني.

– ماريا هذه ملاك! نسيت أن امرأة يمكنها أن تكون بمثل هذا اللطف وهذا الودّ.

– طلبت من زوجتي أن تخرج مع أمي في فسحة بعد ظهر هذا اليوم. آمل أن يتمّ ذلك من دون صعوبات. اغتنم الفرصة، واعتنِ بنفسك. وكما تعرف عطلة نهاية الأسبوع هذه ستكون سرّنا الصغير!

بدأت الضحك حين فكرت في الاستقبال الذي ستقابل به مليكة كنّتها التي تتهمها بكلّ الشرور.

تناولنا غداءنا في وقت متأخر كالإسبان. أخذت بعدها غفوة، ثم أجرينا جولة جميلة في نهاية النهار. روت لي ماريا قصتها مع زوجها الذي كان بالغ الاهتمام واللطف في بداية الزواج، والذي منذ عرف أنها تعاني من مشكلات في الحمل حوّل حياتها جحيماً. طلّقها

من دون تحفّظ وخصوصاً من دون أيّ مال. بدأت العمل، وبفضل ميراث متواضع من أهلها، استطاعت أن تعيش باستقامة. لم تراودها قطّ فكرة الزواج ثانية. كانت قد أصبحت زائرة إلى سجن النساء، وتدعم نزيلاته وتساعدهن قدر المستطاع.

بعد العشاء، عرضت عليّ تدليك ظهري. أدت مهمتها بكل نعومة ودراية. كان في حركاتها الكثير من الحشمة كما في كلماتها. حضّرت لي بعدها نقيعاً ساخناً، وتأكدت من تناولي أدوية المساء، وطبعت على خدي قبلة ومضت وهي تتمنى لي ليلة سعيدة.

كانت ليلة جميلة. نمت فيها نوماً عميقاً من دون اضطراب. نهضت مرتين فحسب وكل مرة كنت أستغرق في النوم مجدداً من دون صعوبة.

في اليوم التالي، اقترحت عليها أن تخرج للتسوق ومنحتها بعض الأوراق النقدية لتمتع نفسها. كانت محرجة. خرجنا من الفندق معاً، وجلست في أحد مقاهي الرصيف وطلبت قهوة بالحليب منتظراً عودتها.

على العشاء، قدمت إليّ هدية صغيرة كانت قد اختارتها لي. شربنا قليلاً من النبيذ. شكرتني على هذين اليومين اللذين أمضيناهما معاً. في رحلة العودة على متن القارب، أكدت لها صداقتي وسألتها هل بإمكاننا الالتقاء من وقت إلى آخر.

– أنت تعلم أن الرجال في طنجة يلتقون في المقاهي ليس للشرب أو قراءة الصحف، بل ليتحدثوا بالسوء عن بعضهم بعضاً. الجميع يتحدثون بالسوء عن الجميع. إذن، إن كنا سنلتقي، فخارج

هذه المدينة التي أحبها ولكنها تزعجني.

راودتني للحظة فكرة طلبها للزواج. ولكن حين تخيلت الفضيحة التي سيثيرها ذلك في البيت وخارجه صرفت النظر سريعاً، وأطلقت تنهيدة طويلة. وفي النهاية أنا ضد تعدد الزوجات.

العودة إلى المنزل كانت هادئة. زوجتي كانت عند إحدى بنات أختها. آدم رافقني وأخبرني عن تفاصيل خروج زوجته مع أمه. كان يضحك، وكان سعيداً من أجلي.مكتبة سُر مَن قرأ

سألته كيف سارت الأمور مع رئيسه. مطّ شفتيه، وقال: "أحلم باليوم الذي أستقيل فيه لأصارحه بكلّ ما أفكر فيه عن طريقته في إدارة المعمل. لم أعد أستطيع ابتلاع تجاوزاته بصمت. تراودني أحياناً الرغبة في مغادرة هذه البلاد. ولا أنفّذ ذلك لأنه لا يطيب في قلبي أن أترككما وحيدين أنت وأمي".

تأثرت بما قاله لي. المغرب هذا يقلقني لكنني لا أتخيل أن ابني قادر على الرحيل، كشقيقه الأصغر.

نصحته بالصمود وأنا أدرك تماماً صعوبة ذلك. شعوري بالذنب نبهني إلى أنني لست مؤهلاً أن أسدي إليه النصائح. أغمضت عينيّ وباركته بحركة من يدي.

٣٤

سامية

٣ ديسمبر ٢٠٠٠

صقيع معدني يستوطن جسدي. أنا مشلولة لا أستطيع التحرك ولا طلب المساعدة. أنا في غرفتي الصغيرة حيث أغراضي في فوضى. ليست لديّ العزيمة ولا الرغبة في ترتيبها. وما الفائدة؟ نرتب حين لا نسأل أنفسنا كلّ صباح عن موعد الرحيل. نرتب حين تكون الحياة طيبة، وحين تكون أنظارنا موجهة نحو المستقبل، المستقبل المشرق أو على الأقل المليء بالوعود والأزهار. ما الفائدة من ترتيب حياة صغيرة منهوبة ومحطمة ومرمية للكلاب؟

لكم وددت لو أصيح، لو أصرخ فزعي وكرهي، ولكم وددت لو تكون لديّ الجرأة على تفجير الفضيحة والاعتراف بكلّ ما جرى أمام عائلتي وجيراننا وكل العالم بأنني أحمل داخلي بذور الخزي والعار. أنا لا أضع الشرف حيث تظنون. لا أضع كرامتي بين

فخذيّ، لكن كلّ من حولي يصرّون على أن شرف الفتاة وكرامتها موضعهما هناك.

العنف والوحشية اللذان وقعت ضحيتهما حطما كلّ شيء فيّ.

من هنا يأتيني هذا الصقيع المعدني. أشعر به يجتاحني كسيل حادّ، سيل من الدم النجس، وأسمع والدتي تتضرع إلى الله وإلى أنبيائه لطرد الشر من جسدي وروحي.

أنا تائهة ولم أعش.

أو على الأقل عشت ما يكفي لمعرفة ما الذي أخلّفه ورائي. والداي! المسكينان! يتدبران أمورهما مع الحياة، فيما أتحضر أنا لأتدبر أموري مع الموت. لم يتسنَّ لي الوقت للتحكم في نظري كي ينصرف عن التركيز على قبح هذا العالم. بقراءتي رمبو، حتى لو لم أكن أفهم كلّ شيء، اكتسبت اليقين لرفض هذا القبح.

الناس من حولي ليسوا مناضلين. يتقبلون مصيرهم وينامون بهدوء. أنا لا أستطيع أن أكون غير مبالية. من أين تأتيني هذه الصلابة التي تجعلني أقف منتصبة وأتقدم من دون أن ألتفت إلى الوراء؟

لن أعرف ذلك أبداً.

تحت إبطيّ كل شيء يزدوج
وبطني ينحفر تدفعه الريح والرمال الهائجة
أتشبث بخيط نجومي التي فقدت بريقها
تحت أسناني الحديد والمرجان أشرب السائل المرّ
أدور كالصوف الملتفّ بين يدي الحائك

السماء مكسوة بكلماتي التي لم أتلفظ بها
عصافير تلهو وهي تنقد براز كلب مصدور
أنا في غرفتي وأرى الجدران تنحني لتغطيني

٣٥

مليكة

المعجزة حدثت! تلقى فياد استدعاءً للحضور إلى دائرة شرطة درادب. قررت مرافقته. لا أحد يعلم. فقد يجري ترحيله إلى موريتانيا. فالشرطة أحياناً توهم هؤلاء بأنها ستسلمهم الأوراق ويكون ذلك فخاً تنصبه للذين دخلوا بطريقة غير شرعية لتوقيفهم وترحيلهم إلى بلدان جنوب الصحراء الكبرى، وقد حدث ذلك بالفعل مع أحد رفاق فياد. لذا حرصت على الحضور إلى الدائرة.

سألني الشرطي عن سبب حضوري. فأجبته بأنني كفيلة فياد، وبصفتي تلك، من واجبي أن أكون حاضرة.

لعلني زوجة سيئة، ربما، أو ربما أمّ سيئة، لكن لديّ الحسّ الإنساني. لديّ أحكام مسبقة على السود، لكنني بتّ أدرك أنه تعصّب وأحاول تجاوزه بالاهتمام تحديداً بهذا المسكين الذي كان يتعفن عند المقبرة.

بعد ساعتين من الانتظار، استدعي فياد فدخل إلى المكتب. أشاروا

عليّ بانتظاره. لم يسبق أن دخلت دائرة شرطة. كبار في السن يبدو عليهم البؤس والضياع، وقرويون ينتظرون منذ الصباح على أحد المقاعد. أحدهم استسلم للنوم. سيدة عجوز تحاول التحدث مع أحدهم في الإدارة، لكن من دون طائل. لا أحد يهتم بوجودها. توجهت نحوي وسألتني هل بإمكاني مساعدتها على استرجاع أرضها التي استولى عليها أحد جيرانها. أخبرتني قصتها. أصغيت إليها وفكرت كم أنا محظوظة بكوني غير معنية بهذا النوع من المتاعب.

– أرضي صغيرة، بمثل مساحة هذا المنديل. أزرع فيها الطماطم والبطاطا والجزر والخس. هناك تعيش دجاجاتي وديوكي. منذ مات زوجي، أباح جاري لنفسه كلّ شيء، ومنذ أيام، خلال الليل، أقام سياجاً حول أرضي وها أنا الآن لا أملك شيئاً. لجأت إلى المحكمة. لم أعرف إلى من أتوجه. حين تكون من الريف وفقيراً، لا أحد ينظر أو يصغي إليك، هذا ما اعتدته. لكن، هذه قضية حياة أو موت. إما أن أسترجع أرضي وإما أن أقتل نفسي.

وبعد لحظة، أضافت: "قبل قتل نفسي، سأقتل ذلك السافل الذي جرّدني من كل شيء!"

لم يكن معها أيّ مستند يثبت ملكيتها للأرض. ورثتها عن والديها. عرضت عليّ قصاصة ورق، نوعاً من الشهادة القديمة جداً التي لم تعد كلماتها مقروءة. طيّبت خاطرها: "بهذا المستند يمكنك المطالبة بالعدالة". فنظرت إليّ بحزن: "للحصول على العدالة لا بد من مال، وأنا لا أملك مالاً. سبق وحاولت، فصدّوني وكان الجواب: لا مال،

لا عدالة. ليس على هذا النحو تماماً، لكنني فهمت أن لا بدّ من وضع بعض الأوراق النقدية في جيب أحدهم، ولكن ليس في حوزتي منها شيء. فرحلت. نصحني أحدهم بالمجيء إلى هنا. لا أعرف أحداً يتحدث نيابة عني. أولادي جميعاً في الخارج، انقطعوا عن زيارتي. حتى أنني لا أعرف في أيّ بلاد هم. لكنني لن أغادر من دون أن تعود أرضي إليّ".

شعرت بالأسى عليها. أشخاص آخرون موجودون هناك راحوا يواسونها. وفجأة توقف رئيس، أو شخص يبدو أنه ذو أهمية، وسأل عن سبب هذا التجمع. فقلت له: "استمع لهذه المرأة المسكينة، وحاول أن تفعل شيئاً من أجلها. تخيّل أنها والدتك".

أدخلها إلى مكتبه. فهمت من قراءة اسمه على الباب وصفته أنه كان الرئيس الأعلى، المفوض أو المفتش... لم أعد أدري، أيْ شخصاً من مرتبة عليا على أيّ حال.

خرج فياد من مكتب آخر. صورة إخراج قيده لم تكن مقروءة جيداً. يجب طلب أخرى، ما سيؤخره على الأقل شهراً قبل أن يحصل على بطاقة إقامته.

في المساء، أخبرت زوجي عن زيارتي الصباحية إلى دائرة الشرطة. لم يفاجأ، وقال لي: "حكاية إخراج القيد غير المقروء حكاية تقليدية. سترين، مع ألف درهم ستصبح مقروءة بكل وضوح".

– لكن فياد المسكين لا يملك مالاً.

– أعلم. عليك أنت، أعني علينا نحن أن نعطيه هذا المال للحصول على أوراقه.

– إذاً، بدّلت رأيك، بتّ موافقاً على رشوة الإدارة؟

– لم أبدّل رأيي. نحن نعيش في بلاد تقبل هذا النوع من الممارسات، فإذا أردت أن يحصل فياد على أوراقه، فعودي إلى الدائرة ودسّي مغلفاً للمسؤول. إياك خصوصاً أن تخطئي في المال. يجب أن تعطي المغلف للشخص المسؤول عن الملف.

انتظرت بضعة أيام وعدت إلى دائرة درادب. خبير بالمكان تعرف إليّ وأخبرني أن السيدة العجوز استعادت أرضها. مضيفاً: "ومن دون قهوة!"

عقّبت مباشرة: "وإلى من عليّ تقديم القهوة للحصول على أوراق تسوية الأوضاع لشاب أسود؟"

– قهوة مرة، مرة جداً، ومن دون سكر؟

– لا، مع سكر! كم من السكر؟

– شاب أسود... بطاقة إقامة... من أيّ بلاد جاء؟

– موريتانيا.

– آه، موريتانيا ذات وضع معقد من الصحراء. أحياناً تميل ناحية الجزائر، وأحياناً أخرى ناحية المغرب. لا بدّ من ملعقتَي سكر على الأقل...

قدّرت في ذهني: ألفا درهم...

– وأين يكون تناول هذه القهوة الشهيرة؟

– مكتب ٧، رقم رمزي. رقم الحظ. والشخص يدعى "السابع"!

كنت قلقة. لم أكن أعرف كيف أتصرّف. وتساءلت: ماذا لو غضب هذا الشخص؟ لكن ما إن دخلت، حدثني الشخص عن قهوة

بملعقتَي سكر. وضعت المغلف تحت كوب القهوة التي لم يشربها أحد، ثم نهضت وغادرت.

بعد بضعة أيام، تلقى فياد استدعاء جديداً على هذا النحو: "يرجى الحضور لتوقيع الأوراق والحصول على بطاقة الإقامة".

سُررنا، مراد وأنا. لم يعد على فياد بعد الآن أن يعيش في الخفاء. فكرت للتوّ في الفرنسية، وفي حبهما المبتور... وماذا إن رحل للالتحاق بها؟

٣٦

سامية

٥ ديسمبر ٢٠٠٠

شقيقي آدم، المرهف الإحساس، لاحظ أنني فقدت الكثير من وزني وأبدو في وضع سيئ. لم يكن في إمكاني أن أشرح له أسباب حالتي. ضممته إلى صدري وقبلته.

بالفعل، فقدت الشهية. لم يعد لديّ قابلية لشيء، وحتى دروسي لم تعد تهمني. أكتفي بقراءة شعراء كلاسيكيين، فرنسيين أو عرب، رغم صعوبة تركيزي. لم تعد لديّ الرغبة ولا الحماسة للكتابة. إنني منكسرة، ومجروحة في أعماق كياني، وأراقب صمتاً يقودني نحو نفق.

فتاة مغتصَبة هي فتاة محكوم عليها بالزوال. الكلّ في المجتمع ينبذها ويرمي بها في بئر العار. لتعضّ على الجرح وتصمت. لا أحد على علم. هذا هو السر الأعنف والأشد رهبة الذي تعيشه. أشعر

بنفسي كإناء مملوء برازاً وقيحاً. أصبحت نفسي قذارة. ولا حتى عاهرة، لأن العاهرة تبيع جسدها لتعيش. أنا سُلبت جسداً وروحاً ولم تعد لديّ رغبة في العيش. لم يعد لديّ شيء أعطيه ولا شيء أبيعه.

أمس، حين مررت أمام أحد الأكشاك، شاهدت صحيفة "الخنزير"، كان على الغلاف صورة فتاة تليها قصيدة. فقلت في نفسي: "المسكينة هي بدورها لا بدّ أن تكون قد دفعت الثمن!" فكرت في نفسي لحظةً هل يجب الاتصال بها وتشكيل مجموعة من ضحايا الخنزير. لكن ما العمل إن كان لا أحد يريد الكلام، ولا الفعل. عليها أن تعيش المعاناة التي أعيشها. نحن جميعاً مدفونات تحت أطنان من الصمت والعار. لا نستطيع رفع الرأس. محكوم علينا بجرّ هذا الحمل النتن الذي يثير الغثيان. محكوم علينا بأن نجد ترتيبات بائسة مع الحياة اليومية، والتظاهر، والابتسام حين تكون لدينا رغبة في البكاء والصراخ والصياح إلى حدّ إسقاط جدران هذا السجن الذي نحمله داخلنا.

يحدث لي أحياناً أن أقف في الشارع، على طريق الثانوية، وأراقب الناس يمرّون. على كلّ رجل، أضع صورة المغتصب. على كل شابة صورة العنف الذي تلقته. بالنسبة إليّ ما من إنسانية صالحة. أرى العالم باللون الرمادي والأسود. ما من ضوء في نهاية النفق حيث أسير. وما من أدنى فرصة لتفجير الفضيحة ورؤية الخنزير في قبضة العدالة، العدالة الحقيقية التي تعيد إليّ إنسانيتي. من المؤكد أن أمثال الخنزير موجودون في كلّ مكان. هم قابعون في الظل وينتظرون فريستهم. سواء هذا المنحرف الذي يستغل الشعر لإشباع غرائزه

المنحطة، أو هذا الشرطي الذي يستخدم سلطته للحصول على ما ليس من حقه، وتحديداً شرف امرأة، مضطرة إلى أن تقدم نفسها إلى هذا الوحش لحلّ مشكلة، وهم هنا، في الظاهر أرباب عائلات صالحون، ورجال طيبون.

والداي، يا لهما من مسكينين! هما أبعد ما يكون عن معرفة ما جرى وما يعتمل في رأسي. أتخيل للحظة ردّ فعل أمي التي ستبدأ الغياب عن الوعي واستخدام كلّ جنونها لعكس المشكلة. سأكون أنا التي هدمت شرف العائلة، وتسببت في انهزام البيت وخزيه. وسأكون أكثر تعاسة لأنني سأعاقب. كيف؟ لست أدري. ربما ترسلني إلى بلاد بعيدة لينساني الناس. والدتي مغربية تقليدية بالنسخة الأكثر قساوة. شرف العائلة متعلق بعذريتي. وإن اغتصبني نذل، أكون الجلاد لا الضحية.

يبقى والدي. هو جبان وأناني. لا يفكر إلا في ملذاته الصغيرة. هو بدوره مغربي صالح. مسلم في الظاهر، منافق، ضعيف، خاضع لإملاءات زوجته، قدماه ويداه مرتبطة بالحاجة إلى تحصيل المال من أجل أن تعيش أمي حياة برجوازية، وتكون في مستوى صديقاتها: حزام من ذهب وقفطان عصري.

فاجأت والدي ذات يوم يعطي والدتي مغلفاً مليئاً بالأوراق النقدية التي راحت تعدّها وتلومه لأنه تأخر في إحضار هذا المال. أعلم أن مصدر هذا المال هو الفساد، ثدي المغاربة، سواء أكانوا مفسِدين أو مفسَدين. والدي هو من الفئة الأخيرة، وهي الأسوأ، لأنه سيشعر بالذل في أعماقه كلّ مرة يَقبل فيها المغلفات. في نظري ليس هذا

سوى مال مأخوذ من جيوب المواطنين. أي بتعبير آخر هو سرقة.

والدي، الذي أحبه طبيعياً، لم يمنحني أدنى فرصة لأثق به وأستند إليه للخروج من نفقي. هو لطيف. وهذا من أسوأ الصفات. اللطف شكل من الحلاوة التي تشبه السكاكر التي تثير التقيؤ. يفتقر إلى الحضور. يفتقر إلى العمود الفقري. هو في حاجة إلى أحد ما ليساعده على النهوض، ليكون أقلّ انحناء، أقلّ خنوعاً، أقلّ تساهلاً. يتدبر نفسه مع كل شيء. مع الأخلاق، مع الزوجية التي يخونها باستخفاف، مع واجبه كأب، مع واجبه كمواطن وموظف.

مع ذلك، كان بإمكان هذا الرجل المثقف أن يحظى بحياة أخرى، أكثر كرامة وجمالاً واستقامة. انحدر إلى مستوى التفاهة العامة وتحول إلى شخص عاديّ إلى حد أنني لا أشعر حياله إلا بالشفقة.

كيف سيكون ردّ فعله لو رويت له مأساتي؟ سيبدأ النحيب. إنني واثقة. سيكون بإمكاني أن أملي عليه سلوكاً آخر: أن أقترح عليه أن يرافقني إلى مركز الشرطة للتقدم بشكوى ضد هذا المنحرف الذي يغتصب القاصرات. لكن هو أيضاً يريد التستر على الفضيحة. وسيقول لي: "يا ابنتي، انسي، ولنترك لله أن يتدبر لهذا الوغد العقاب الذي يستحق".

صفعة، نعم، صفعة قوية على الخدّين لإيقاظ هذا الوالد الفاقد الجدارة. لكن ليست لديّ القوة. أصفعه بما يكفي عبر احتقاري وشفقتي.

الأحد الماضي، جمع والداي، للمرة الأولى، بعض أفراد عائلتنا. ليس على غداء، بل على شاي فحسب، وكعك جاف وبعض

المعجنات بالسكر. راقبت هؤلاء الرجال والنساء المطمئني البال، المبتسمين، الطيبي المزاج، لا يتحدثون عن أي موضوع قد يفسد الجو. هم راضون عن أنفسهم. مثاليون في بذلاتهم وفي القفطانات. كلّ يؤدي دوره. الرجال تجمعوا في جهة، والنساء في جهة أخرى. شاهدت هذا العرض فشعرت برغبة في التقيؤ، ليس في الحمام، أو في الخفاء، بل هنا، وسط قاعة الاستقبال، القاعة الشهيرة التي لا يقصدها أحد، والقيء ينتشر على القفطانات الجميلة للسيدات. التقيؤ والتحدث بالعربية، بهذه اللغة التي لا تلفظ فيها بعض الكلمات خجلاً، أو بحياء زائف.

"أرجو انتباهكم! لديّ شيء أقوله لكم، شيء مروّع أعترف لكم به. أنا في السادسة عشرة ولم أعد عذراء. فقدت عذريتي في عملية اغتصاب حدثت منذ أسبوع في منزل الخنزير، أقصد الجيفة، شارع غويا في شقة قذرة ومريعة. تمّ تخديري واغتصابي. أحمل على وجهي وعلى كامل جسدي وصمة عار العائلة كلها. أنتم جميعاً، نساء ورجالاً، تلطخ شرفكم بواسطتي، أنا ابنة أختكم، وابنة عمكم، وابنة جميع الآثام. أحمّلكم المسؤولية، لأنكم لا ترون شيئاً قادماً، تظنون أن بناتكم منزهات وقديسات ومن دون رغبات. بالنسبة إليّ لم تكن المسألة مسألة رغبة، بل رؤية قصائدي منشورة. أنتم لا تعرفون ما هو الشعر. طبيعيّ، هذا يتجاوزكم. لكن الشرف تعرفون أين تضعونه، وأين تلقونه، وأين تخفونه. حسناً، هذا الشرف لوّثه منحرف يرود المدينة، مغتصب، وغد. ما من رجل بينكم ينهض ويذهب لتوقيفه أو على الأقل لتحطيم وجهه، وقطع عضوه الرهيب

الذي أحدث به ثقباً في غشاء بكارتي، ثقباً في حياتي، ثقباً هو في الحقيقة قبري.

وأنتن أيتها النساء! لا تقلن شيئاً. والدتي غابت عن وعيها. هذا دأبها كلّ مرة يتعين عليها مواجهة الواقع. تغيب، لا ترى شيئاً. إذن، هي لا تتحمل مسؤولية شيء.

سأرحل! لست في مصافكم ولا من عِرقكم ولا قبيلتكم. على أيّ حال، جئت وأرحل من جديد نحو قدري. أقله أكون قد أفرغت حقيبتي. أكون قد لوثت الجو، ووسخت قليلاً غرفة الاستقبال الجديدة هذه وضمائركم النائمة نوماً أبدياً".

صمتي الثقيل وازدرائي كانا كافيين.

أولاد الريح
يعبرون الليل
على أجفان الفتيات
اللواتي دُفن سرهنّ في ثمرة صيف
هو نواتها
العسل والمرارة

٣٧

مراد

أحد زملائي القدماء تمّ توقيفه وتقديمه إلى العدالة. كان قد ضبط متلبساً في قضية فساد. نصب له الفخ أحد المفسِدين الذي كان قد ضرب له موعداً في مقهى يتردّد عليه رجال الشرطة والضرائب.

ببلاهة المبتدئين وسذاجتهم، سهّل النيل من نفسه. شرط الفساد ألا تخلّف أي آثار. لا من رأى ولا من عرف. الأوراق النقدية تنتقل من يد إلى يد.

حين حسمت أمري وبدأت قبول المغلفات، كنت قد درست أدنى تفاصيل آليات الفساد التي لا يرقى إليها الشك. أصبحت خبيراً في هذا المجال. وظفت فيه كلّ ذكائي ومهارتي فلم يتمّ ضبطي مرة. لست فخوراً بهذا النجاح، لكن مع الوقت، والعمر، تعلمت أن أضع الأمور في نصابها، وأن أضع الزيت الضروري في الدواليب، وأن أتدبر أموري مع الحياة ومراوغاتها.

قررت أن أجري تقييماً لحياتي. بدأت أمس صباحاً، لكن سرعان

ما أصابني الإحباط. الإيجابي فيها ضعيف، والسلبي، الرذيلة والسرقة، مثقل جداً. لكن لو أننا لم نعش الفاجعة، لكانت حياتنا، ربما، وعلى الأقل حياتي، ستتبع مساراً آخر، أكثر كرامة وتقبّلاً.

ما يميز النظام المغربي، غير المكتوب وغير المعلن، أننا ننتهي دوماً إلى تسوية، أقله في بعض الحقول التي لا تهدد المصالح الكبرى والكبرى جداً. الشعب يعرف ذلك بالسليقة. رأيت أناساً مساكين يَمثلون أمام القضاء لا ليطالبوا بحقوقهم بل ليسألوا لمن يؤدون الرشوة. القانون، الشريعة، العدالة... لا يؤمنون بأيّ منها. كلما كانوا ضعفاء وفقراء، بحثوا أكثر عن غصن يتشبثون به. هذا أمر طبيعي إلى حدّ ما.

أستطيع أن أتهم زوجتي وألومها على هذا الانحراف الذي لست فخوراً به. لكن نزاهتي لم تكن صلبة بما فيه الكفاية. لم تصمد طويلاً. يجدر القول إنّ الحزن الذي لا يقاس الذي استحوذ عليّ بعد الفاجعة أضعفني. دمّر قيمي. أصبحت غير مبالٍ، ومهووساً نهاراً وليلاً برحيل سامية. ألمي يحدث ثقوباً في كل مكان، في ذاكرتي، في حضوري بين الناس، في غرائزي. تحولت ألماً ومعاناة. لم أكن أحتمل شيئاً، ولا حتى الثياب التي كنت مجبراً على ارتدائها. قميصي، ولو كان خفيفاً، يثقل عليّ، ويؤلمني. خطواتي تحولت محناً. المشي كان يتعبني جداً إلى حدّ الجلوس أحياناً في ركن من البيت من دون حراك على مدى ساعات. أنظر إلى البلاط ذي القبح المميز. أغفو وأقع في شقوق يغمرني فيها الوحل، ويجذبني نحو القعر. كنت أغرق في

هذه المياه الكثيفة والثقيلة. سلّمت أمري، ولم أكن أقاوم. أريد أن أنتهي من الأمر. لكنّ زوجتي كانت توقظني وتصيح بي كي أنهض وأذهب إلى العمل.

في المكتب، أبذل جهوداً مضنية للغرق والتخلي عن كل شيء. كنت أعمل من دون أن أعرف ما أفعل. لم أعد على قيد الحياة، ولم أعد متحكماً بشيء، لا بإرادتي، لا بمزاجي، لا باكتئابي.

طبيب العمل منحني إجازة للاعتناء بنفسي. استمرت حالتي في التراجع.

لم أكن أتوقع حدوث شيء. ابنتنا كانت مثالية. كانت تعمل بجدٍّ في المدرسة ولا تتسبب لنا في أي مشكلة. كلّ شيء كان ينساب بسلاسة. والدتها وأنا كنا في العمق أعميين.

منذ ذلك اليوم المشؤوم انسحبتُ من الحياة من دون أن أغادرها. سلمت نفسي للفراغ وتقبّلت كلّ شيء. ابتلعت كلّ شيء كوحش جائع. فقدت إنسانيتي. تحولت إلى ممسحة يدوسها الآخرون. لم أكن أهتم. كنت فاقد الإحساس حيال كل شيء. ذكرى الفاجعة كانت تحتل كامل مساحة ذهني. لم يعد لديّ عقل. ألم فحسب يقطر داخل رأسي ويجعل من كل خلية عصبية ناقلة عذاب. تحولت كرة، فوهة بركان من تراب جاف وهامد. اختلطت مع أكوام القمامة. تفوح رائحتي الكريهة في كل مكان. مشاعر متضاربة تدفع بي ذهاباً وإياباً من عالم إلى آخر، ودوماً مع هذا الجحيم الذي لا أستطيع تسميته ولا تحديده.

٣٨

سامية

١٧ ديسمبر ٢٠٠٠

أعددت كل شيء بعناية. رتبت غرفتي، طويت ثيابي، نظمت كتبي ودفاتري. ثم أخذت حماماً. سيكون الأخير قبل أن أطير نحو عالم أشد رحمة. لا أستطيع التفكير في أحد. لا في والديّ، ولا في أخويّ، ولا في صديقاتي. صورة الخنزير المكشرة تطالعني في كل مكان. تسدّ سمائي. تجتاح المساحة كلها. تصادر الهواء الذي أتنفسه. أختنق. الصياح، الصراخ، التخبط... لم ينفعني في شيء. أنا وحيدة في مواجهة هذا الوحش، وليس في حوزتي أي سلاح لإخراسه، ولمحوه من الوجود. ذراعاه، البالغتا الطول، أصابعه المعدنية، كمسامير صدئة تسعى دوماً إلى بلوغي. عليّ التخلص منه. قتله. السبيل الوحيد لجعله ينام هو فتح الغاز، حتى لو تسبّب في موتي.

حاولوا أن تفهموا ما تشعر به فتاة في السادسة عشرة معنفة في

جسدها وفي روحها على يد وحش شبق وسمج وعنيف. لن يعود لكم وجود، وتنتفي لديكم الأسباب التي تدفعكم إلى الاستمرار في العيش، وأن يكون لكم مخططات وحبّ للآخرين وأمل. كلّ شيء يُرفض لكم. كلّ شيء يدير لكم ظهره. تصل الوحدة سميكة وثقيلة. الوحدة الحقيقية، الكبرى، البلهاء، الشريرة، تلك التي تلحّ، التي تدور حولكم كأفعى عجوز ثم تلتف على عنقكم، تضغط قليلاً، ولا تكاد تسمح بتسرّب الهواء، ثم تسحقكم بكامل وزنها، وتطلق رائحة تثير الغثيان وتتسبب لكم في ألم في القلب والرأس.

الوحدة التي كنت أعتبرها أحياناً كصديقة أضحت حيواناً شريراً من دون رحمة. حكمت عليّ بالألم قبل أن أرحل. كأن إلهاً منتقماً أرسلها. كيف؟ طفلة تحاول أن تتحدى السماء؟ لكن من تظنّ نفسها؟ ليست الأولى التي تتعرض للاغتصاب، وليس عليها أن تزعج القدر إلى هذا الحدّ! الموت. حسناً، لكن مباشرة، لا كما حلمتِ به، بصمتٍ، وبدفقٍ من العطر والورود. سترحلين حافية القدمين فوق الأشواك الحادة، فوق النباتات التي تحرق الجلد، فوق الحجارة التي تحفر ثقوباً حتى النخاع.

لم تعد الوحدة صديقة. لا تواطؤ، لا نجدة، لا مساعدة. افتحي صمّام الغاز، ستثملين ببطء، سترين الأشياء تدور من حولك وتزدريك، ولن تستطيعي الإمساك بأيّ يدٍ ترينها. هذه ليست أيادي تمتد لإنقاذك بل معاول لحفر الأرض التي ستغورين فيها شيئاً فشيئاً إلى أن ينقطع جلدك عن التنفس، وتمتلئ أذناك بهذا التراب البنيّ الرطب، وتشاهد عيناك كلّ شيء حتى اللحظة الأخيرة حين تستسلمين، وهناك ترحلين،

ليس رحيلاً كاملاً، وتتنفسين ببطء لتوهمي نفسك أنّ النجاة ستكتب لك، لكنك وحدك في البيت، فأنت التي اخترت اليوم والساعة، وانتظرت سفر والديك لترتكبي ما لا يمكن إصلاحه. أنت جاهزة الآن.

أسمع هذا الصوت الخارج من أحشائي وأحاول إخراسه من دون جدوى. أنفاسي بطيئة. عيناي تغمضان. قلبي يخذلني. الخنزير جالس على رأسي ويدفعني إلى عمق الحفرة الملأى بطين شبيه بالقاذورات. لا أريد الموت في نتانته. يسلب مني موتي. ينتهك لحظاتي الأخيرة. المنزل فارغ. الجميع غائبون. صوتي لم يعد يخرج من صدري. أشعر بالدوار. أستسلم للغرق في هذه البئر، في هذا النفق. نعم، أعرف هذا النفق. إنه المؤدي إلى الموت، إلى توهّج صغير، إلى ضوء ضئيل جداً في نهايته. أتقدم رغم الثقل الذي يضغط على أطرافي. أمشي من دون أن أتمكن من الاستدارة. أسير نحو الضوء الذي يكبر كلما اقتربت منه. أصِل. حقل ألقت عليه الشمس الهائلة صفرتها، مرج يرقص فيه عشرات الشبان متظاهرين بأنهم ملائكة. أعلم أنهم ليسوا ملائكة. هم معاقبون مثلي. تحدوا إرادة الخالق. يرقصون لكنهم لا يبتسمون. فقدوا الابتسامة نهائياً، والفرح، والنور الداخلي. أنضمّ إليهم. هذا قدري. أمشي. إنني خفيفة. أطير، أحلق. إنني ضوء في هذا الوضوح المبهر. أسلس القياد لنفسي في توجهها نحو القمم. أحلّق وأحطّ كبجعة على سطح العالم. لا أشعر بشيء. إنني خارج المتناول. لم يعد لديّ ذكريات، ولا ارتباطات، ولا علاقات. سأولد ربما من جديد. لا

شيء بعدُ يحدّدني. لديّ شعور بأنني أنام، أغرق في نوم عميق لا أعتقد أنني سأستيقظ منه يوماً. الغاز يصفِر بهدوء.

تلك التي لا أستطيع تسميتها
استقبلتني كأميرة
ملتفة بالضوء
أراضٍ مجهولة
قلبُ الشباب الذي لم أحصل عليه
يخفق على إيقاع سوناتا
ويثير فيّ القشعريرة

٣٩

مليكة

قُطع رأسي. حُكم عليّ بالموت ونُفذ الحكم. أنا ميتة. ليس بالكامل. ميتة، لكنني أعي كلّ شيء. مظهري يشي بأنني حية، لكنني أستطيع التصرّف، التحرّك، كسر أشياء، تحطيم أقدار، نشر الجنون، التسبب في الأذى. لديّ قدرة العين الشريرة الفعالة خصوصاً؛ يكفي أن ألقي نظرة على طفل كي يقع ويتأذى. إن حدّقت إلى سيدة، تتعثر وتكسر عظم فخذها. إن ركّزت على شابة وفي صحة جيدة، تصبْ بمرض مجهول وتتألم ألماً شديداً. نعم، هذا ما صرت إليه، هذا عقابي أو ثوابي، وفق الحالة. لم أولد شريرة. صرت شريرة. اسألوا الأحمق، أعني زوجي. يظن أنه سينجو من دون أن يدفع الثمن. منذ الفاجعة، منح نفسه إجازة، إجازة طويلة كي لا يتحمل مسؤولية شيء. أرفض أن أسدّد إليه عيني الشريرة. لا أريد معوّقاً في بيتي، مصاباً بالشلل الرباعي يصير عليّ الاهتمام به. سأتسبب له في قليل من الألم، بالقدر الذي يكفي لكي يندم على

ما اقترفه بحقي. انتقام لطيف لكنه انتقام طويل الأمد.

حياتي، حياتنا توقفت فجأة هذا الأحد من ديسمبر. سامية جرّتنا معها. نحن ميتان ولا ندري.

منذ أحيل زوجي إلى التقاعد وهو يثقل كاهلي. لا أعرف ماذا يجب أن أفعل كي أتخلص منه. ينهض في وقت متأخر ويتجول في البيت بهذه البيجاما المريعة. هو مهمل. يحلق ذقنه مرة من وقت إلى آخر. يغتسل أقلّ من السابق. يقول إن حياته باتت بلا معنى. حياتي أنا كذلك، لكننا لن نتمكن أن نتوحد معاً ضد المحن. نحن وحيدان وعلينا تحمّل هذه الوحدة حتى النهاية. النهاية لا ألمح أيّ أثر لها، أو إشارة. إذن، أمشي وأسحق كلّ ما يعترض طريقي.

في السابق، كان زوجي ذا منفعة. كان يأتي بالمغلفات، إضافة مالية لتأمين العيش. منذ انقطع عن العمل، لم يعد يأتي بغير المشكلات، والمزاج السيئ، والرغبة في التقيؤ. لم يعد بيننا شيء. حتى الذكريات أحرقناها بتوافق مشترك. لا شيء. لم يعد ثمة شيء. تأوهات، صيحات، روائح كريهة، شفقة.

شخنا سريعاً جداً وعلى نحو سيئ.

فقدنا الملاك الذي كان يحرسنا من النزعات الشريرة. كنا محميَّين ولم نكن ندرك ذلك. كان يجب أن تغادرنا لكي ننكشف أمام أنفسنا.

في السابق، كان ثمة إطار، منطق. الأشياء كانت في مكانها. اليوم لا شيء في مكانه. نحن تائهان ونتسبب في الأذى لأنفسنا. نحن محكوم علينا بالبقاء معاً. هذا عقابنا.

لا أحب القراءة. لا أحب الخروج. هو يحتمي بكتبه. ينسى نفسه

في قراءاته. ما يثير غيظي. يستمع لموسيقا المتوحشين هذه. يعشق هؤلاء الزنوج الذين يغنون بطريقة رديئة جداً. أقول ما أفكر فيه. لم يعد أمامي عوائق، ولا حدود. ولا هو، على أيّ حال.

أدور في حلقة في هذا البيت الذي يشبه القبر. لا أستطيع مغادرته والانتقال إلى مكان آخر. كان علينا أن نبيع هذا الكوخ والإقامة في شقة حديثة، جيدة التدفئة في الشتاء، والعيش كالناس المتحضرين. لكننا لم نعد متحضرين. نحن في حرب. لا أسمح له بتمرير شيء. عليه أن يدفع بقدري إن لم يكن أكثر.

إن كانت ابنتنا قد غادرتنا، فلأننا لم نفعل ما يجب لمعرفة ما حدث لها وجعلَها تعِسة. حكاية الاغتصاب هذه لم أعلم بها إلا بعد انقضاء وقت طويل على موتها، حين عثر والدها على دفتر مذكراتها. قرأها ولم يقل لي شيئاً. أعتقد أنه أمضى الليالي باكياً في ركنه. ثم، ذات صباح، أعطاها لي. غبت عن وعيي، وحوّلت عدائيتي كلها نحو هذا الزوج، هذا الوالد الفاقد الأهلية. ذاك كان تاريخ هزيمتنا ودخولنا في جحيم يقوضنا ويرمينا قطعة قطعة في حفرة مشتركة. أَصرّ على استعادة دفتر مذكرات ابنتنا وأخفاه.

٤٠

مراد

حلّ واحد فرض نفسه عليّ: فقء عينيه وقطع قضيبه.

اشتريت سكين مطبخ صناعة ألمانيا. سكين من نوعية ممتازة. ورسمت خطة. لن أبلّغ عنه الشرطة... رفع دعوى وانتظار تحقيق العدالة. لا شرطة. فاسدة. لا عدالة. فاسدة. أعلم عما أتحدث. تبقى عدالتي، تلك التي سأطبقها على هذا الوغد. اكتشفت في نفسي روح التعذيب. نعم، نحن جميعاً مهيؤون أن نصبح يوماً جلادين. الخنزير سيدفع الثمن. أمضي وقتي في وضع خطط، في تأمل وجهه حين سيراني، حين سيكتشف أن سكيناً ألمانية غير قابلة للصدأ موجودة في حقيبتي. سأقضي عليه بهراوة اشتريتها من سوق الأغراض المستعملة، كاساباراطا. ثم أوثق يديه، وأسقط سرواله ولباسه الداخلي. سأسكب على أعضائة كحول الإشعال. لن أضرم فيه النار، فقد تنبعث منه روائح كريهة تنبه الجيران، أولئك تحديداً الذين يغمضون أعينهم ويصمّون آذانهم. لا، وظيفة

الكحول أن يسهّل بلوغ الشفرة جذر القضيب. سأضع قفازات للعبث بأعضائه، وإمساك عضوه من حشفته وقطعه من أصله. الدم سيسيل. سأوقظه ليرى دماءه تنزف على فخذيه وعلى الأرض وعلى السجاد الذي تفوح منه رائحة المني ودم ضحاياه الشابات.

خطة أخرى أكثر ضراوة. سأضرب له موعداً في الغابة الدبلوماسية على الأطلسي. سأزعم له أنني واحد من هؤلاء الإسبانيين المنحرفين ذوي الميول الجنسية نحو الأطفال الذين يأتون للتسوق في شقاء طنجة. سأجعله موضع ثقتي وأعطيه بعض الأسماء وأستدرجه إلى تلك الغابة صباح الإثنين، وهو اليوم الذي لا يقصد الشاطئ فيه أحد. لدى وصولي سأحدثه عن الشعر وعن حب الفتيات الصغيرات. أكون قد اخترت المكان، غير بعيد من هناك، حيث أذبحه كخروف العيد. أتركه ينزف قبل أن أذكر له اسم واحدة من آخر ضحاياه.

احتمال آخر أيضاً. أقدّم إليه نفسي على أنني طابع ورقته الشعرية التافهة. أتدبّر أمر الدخول إلى المطبعة بعد إقفال أبوابها. أجعل الخنزير يأتي لتصحيح المسودات. لا أظهر له، وأرتدي قناعاً في حال استدار ليرى من يكلمه. أصدر إليه الأوامر من بعيد، وأقول له إنني في دورة المياه. وما إن ينحني فوق ورقته التافهة، أتقدم من ورائه بخفة، وأغرز السكين في مؤخرته وأحركها إلى أن تمزق أسفل بطنه بالكامل. أتركه، ورأسه ملقى على ورقته التافهة، ودمه يسيل على ركبتيه وعلى الأرض.

لن يعرف من الذي مزّقه نصفين. سيلفظ أنفاسه هناك، طوال نهاية

الأسبوع بكاملها. الإثنين صباحاً تُكتشف جثته منتنة في دمه الذي يكون قد جفّ.

في الحقيقة، لن أفعل شيئاً من ذلك.

سأعيش مع هذا الشعور بالذنب حتى الرمق الأخير.

لديّ مخيلة لكنني لست رجل فعل. العار. نعم، أعرف ما هو، وما فعله بي، وكيف يحفر أخدوداً داخل جسدي، وكم يؤلمني. لكنه لا ينتج. لا ينفع في شيء. نعيش معه. لست أول من ابتلع خزيه. شربته. بات جزءاً مني، عضواً بين أعضائي. يوقظني أحياناً في الليل. يمنعني من النوم. يعذبني. لا أحتجّ. لو أنني تصرفت، ما استقر فيّ قط.

٤١

آدم

تربيت في ذكرى مقموعة. كنت في السادسة حين ماتت أختي الكبرى. لم أفهم ما جرى. كان يوم الأحد. تركني والداي لدى جديّ. كان عليهما زيارة طبيب أو أقارب في تطوان. سامية كانت تعدّ بحثاً للمدرسة. كانت في حاجة إلى الهدوء.

كنت أشعر بالضجر لدى جديّ. جدي لا يتوقف عن حديث المال وكيفية الاقتصاد. لم أكن أفهم لماذا كان حريصاً على إلقاء هذا الدرس في الاقتصاد عليّ في سني. كنت أغسل يديّ. اتجه نحوي وأقفل الحنفية التي كان تدفقها خفيفاً إلى حدّ ما.

– أثناء غسل يديك يجب ألا تهدر الماء. هذا يكلف مالاً. تفتح الحنفية فقط حين تريد التخلص من رغوة الصابون. اقتصاد! اقتصاد!

هما بدورهما كان لديهما كثير من علب الأدوية. جمعتها وأقمت منها بنايات. تقوم لعبتي على تخيّل مدينة حديثة مطلة على البحر. لتصوير البحر، بسطت قطعة قماش زرقاء وجدتها في المطبخ.

جمعت فتات خبز لأعطي انطباع الكثبان الرملية. كنت أعلم أنّ الريح الشرقية حين تهبّ تشكل كثباناً من الرمل.

عند المساء لم يأتِ والداي لاصطحابي، مع أن عليّ الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي. جداي خرجا ووجدتني وحيداً في المنزل. نمت سريعاً كي لا أشعر بالخوف.

في اليوم التالي، انتحى بي جدي جانباً: "يجب أن تبقى عندنا بضعة أيام. شقيقتك مريضة. والداك منشغلا البال عليها ولا يستطيعان حالياً الاهتمام بك. ستتغيب عن المدرسة. ليس هذا بالأمر الخطير".

علمت لاحقاً أنه لم يعد لديّ أخت. في البيت، بات ممنوعاً التلفظ باسمها أو التلميح إلى وجودها. الصمت والسر. لم أكن أفهم تصرف والديّ. غرفتها ظلت موصدة بالمفتاح. كان اللغز يتضخم وأنا بدوري صرت أشترك في هذه المهزلة. مع الوقت، بدأت أفقد صورتها. كلّ الصور التي كانت تظهر فيها سحبت، أو ربما مُزقت أو وضعت في صندوق. كنت أقنع نفسي بأنها ارتكبت جريمة، شيئاً ما تسبب في الكثير من الأذى للعائلة بأكملها. الصمت كان محاطاً أيضاً بشعور من العار. لكن لماذا؟ لم أكن أدري.

في ذكرى مرور عام على الفاجعة، سافر والداي وتركاني كالعادة لدى جديّ حيث أتلقى دوماً دروس البخل نفسها. حينئذ لم أكن أعرف معنى كلمة "بخل"، لكن كلّ ما في هذا البيت كان يشير إليها. كل شيء كان يتنفس هذا المرض. لم أكن أفهم لماذا كانا يوليان هذا القدر من الأهمية للمال اليومي. ضوء خافت. نقص في التغذية. وما كانا يقبّلانني قطّ. مرة دعاني جدي إلى مرافقته إلى السوق. كان

يساوم كثيراً. وكان يقول لي: "الدرهم هو الدرهم"، ويضيف: "في السابق كان يقال: البيزيتا هي البيزيتا". وبدلاً من أن أتعلم ما كان يريد أن يرسخه فيّ، شعرت بنفسي غريباً على هذه الممارسات. كنت أكره المفاصلة. سأكون نقيض البخيل.

مع الوقت، بدأت أدرك أن هذه العائلة لم تكن طبيعية. كلّ شيء يعالج في الظلمة والصمت. الأشياء لم تكن تقال. والدتي كانت المنتَج الصافي لهذه التربية التي تقضي بألا يتسرّب شيء خارج البيت. كانا ينشدان نوعاً من الكمال عبر هذا التكتم المرضيّ. في همساتهما، كان الموضوع دوماً الشرف والعار معاً. شيئان لم أستسغهما قط، لأنني لم أكن أفهم إلامَ كانا يلمّحان.

لدى بلوغي الخامسة عشرة، أدركت أنّ عليّ سلوك سبيل آخر. كنت أجدّ في دروسي. ذكرى شقيقتي الكبرى كانت تمّحي شيئاً فشيئاً وشجارات والديّ تتضاعف أكثر فأكثر. كانا على أعصابهما. أمر تافه كان يدفعهما إلى حالة من التوتر والعدائية المرفقة بعنف غير مسبوق. لا أريد أن أقيم علاقة بين رحيل سامية وتدهور علاقاتهما، رغم أن تفسير ذلك كان هنا. لم أكن أطرح أسئلة. أراقب مشاهد شبه مسرحية وأشعر بنفسي غريباً أكثر فأكثر عن هذه العائلة وعن أسرارها.

ما إن حصلت على شهادة البكالوريا، حتى تقدمت من الوزارة بطلب منحة لمتابعة دروسي. في المقابل، وقّعت عقد ارتباط مع الدولة. كنت أقول في نفسي: هكذا سيكون مستقبلي مضموناً. لم أكن أستطيع الاعتماد إلا على نفسي. لحسن الحظ أنني تعرفت في الرباط، حيث انتقلت للدراسة، إلى معلمة شابة تدرّس الحقوق،

أستاذة معاونة جاءت من إحدى ضواحي باريس. كنت تلميذها، لكن شيئاً فشيئاً أخذت الأمور بيننا تتطور. كانت تكبرني تقريباً بخمس سنوات. التكتم التام كان مطلوباً. تعلمت الكثير من هذه العلاقة. وقعت في غرامها، أما هي، فلم تغرم بي حقاً. انتقلت إلى الإقامة عندها مع احتفاظي بغرفتي في المدينة الجامعية التي كنت أتشارك فيها مع زميل من الريف. علاقتنا كان يجب أن تبقى طيّ الكتمان، ففي تلك المرحلة، كان المجاهدون الإسلاميون يجتاحون الحرم الجامعي ويحاولون فرض عقيدتهم. كانوا يستدعون الشرطة لدهم الشبان والفتيات غير المتزوجين الذين يقع فعلهم تحت قانون حظر العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج. كارمن كانت تغامر بترحيلها، وأنا بحرماني المنحة الدراسية.

بين عائلة مكبلة بالأخلاق والعار، وحياة طالبية تحت رقابة دينية مشددة، لم أكن أعرف أين أجد مكاني. فكرة الهجرة إلى أيّ بلاد أكون فيها حراً تطاردني. لكن أيّ ألم أكون قد تسببت فيه لوالديّ لو أنني اهتديت إلى سبيل للرحيل.

مع كارمن كنت قد اكتشفت عالماً آخر، عالماً حيث كان للفرد موقعه وحقوقه وحريته. هذا ما كنت أطمح إليه من دون أن أستطيع التعبير عنه.

حبلت كارمن. لم يكن مطروحاً، بالنسبة إليها، الاحتفاظ بالطفل ولا بالإجهاض سراً في الرباط. اغتنمت فرصة إجازة الصيف للعودة إلى فرنسا حيث الإجهاض قانوني. لم تعد لاستئناف عملها. لم تعد تجيب عن رسائلي. لقد أسقطت من حسابها تجربتها المغربية التي

لا بد أن تكون قد تركت لديها طعماً مريراً للغاية.

بعد سنوات، قرأت مقالة عن رواية أولى كتبتها مدرّسة شابة باسم كارمن لابلاس، *Les citronniers de Rabat* [أشجار ليمون الرباط]. على غلافها صورتها وقد قصّت شعرها. كانت تقول إن المغرب بلاد رائعة، لكن الناس ليسوا مثقفين، والدين يُخضع كلّ شيء لرقابته بما فيها العلاقات الحميمة بين الرجل والمرأة.

رغبت في قراءة هذه الرواية. لكن أياً من أصحاب المكتبات في الرباط لم يكن قد طلبها. لم تكن ممنوعة، لكن لا بدّ أنهم نُصحوا ألا يستوردوها من فرنسا.

بعد نيلي إجازة الحقوق، دخلت إلى معهد الإدارة في القنيطرة. كنت قد تمكنت من ادخار بعض المال، فاستطعت استئجار شقة صغيرة في بولفار باستور لدى عودتي للعمل في طنجة، بعيداً من والديّ، بعيداً من الأسرار، بعيداً من المرض الذي هو حجة كل شيء.

كنت أشعر بأنني وحيد، ولم يكن ذلك يزعجني. كنت أقرأ كثيراً وأشاهد أفلاماً مقرصنة. والدتي، الحزينة دوماً والقلقة، كانت تسألني كلّ مرة أراها فيها: "إذن، ماذا تنتظر لتتزوج؟ لن تأتينا بواحدة من أولئك الأجنبيات العابرات؟ لديّ لك اقتراح. ثق بي. أنا أعرفك وأعرف من التي تناسبك كزوجة".

تركتها تتكلم من دون أن أعلق على كلامها.

التقيت ناجية أثناء محاضرة ألقاها أمين معلوف في المركز الثقافي الفرنسي. لم يكن حباً عاصفاً من النظرة الأولى، لكن

صداقة مبنية على الكتب التي قرأناها وناقشناها حول كوب شاي في Café de Paris. شعر قصير، وصدر جميل، وبشرة داكنة ومظهر أنيق. كلّ ما لا يعجب أمي التي كلّ بشرة بالنسبة إليها يجب أن تكون بالضرورة بيضاء.

تزوجنا من دون إبلاغ أهلنا. فهمت أنه من أجل إنجاح زواجي كان عليّ أن أبقي زوجتي أبعد ما يكون من أمي ومآسيها التي تحتاج إليها لتعيش.

٤٢

سامية

من دون تاريخ

حتى أنّ أمي لم يتسنَّ لها الوقت كي تصرخ. فقدت وعيها فوراً. أغمضت عينيها وأرخت جسدها فسقط مثل كيس. تجنب عيش ما حدث. الامتناع عن رؤيته. رفض التعرف إليه. التغيب. الرحيل. الاختفاء بحركة مختصرة وحاسمة. كان تصرفاً ملائماً جداً لها. أنا ما عدت هناك. الجميع تحلقوا حول أمي. ملأتْ للتوّ الخانة الناقصة في نوبتها العصبية، في سوء كيانها، في نفاقها المثير للشفقة. في النهاية هذا من حسن الحظ، إذ توفّر على الحاضرين سماع صراخها على الأقلّ. غرقتْ في غيبوبة مرغوبة. هكذا باتت لديها حججها التي لا تُدحض، فلا يجرؤ أحد على انتقادها.

منحتُها للتو مادة رواية سوداء رديئة كلّ شيء فيها يقطر مشاعر سيئة.

والدي المنهار يبكي بصمت ورأسه إلى الحائط. كان يصلي، هو الذي لم يحتلّ إيمانه قطّ مرتبة أولى في حياته. لم يكن يصلي لله بالضرورة. كان يصلي لله وللحائط، للأرض وللغابة، للجبل الذي يتحرك وللنبع الذي يبكي. أودعَ روحه في حفرة هناك حيث رموني، صبيحة اليوم التالي، مباشرة قبل صلاة الظهيرة، ولأكن أكثر تهذيباً، حيث ألقوا بي. مصلّون محترفون ردّدوا سورة "النساء"، ليس بكاملها، بل بضع آيات لمصاحبة روح الراحلة. النساء كنّ ممنوعات من الذهاب إلى المقبرة. بقين في المنزل ليبكين معاً هذا الرحيل المفاجئ. بعضهن حضّرن أطعمة خفيفة لأولئك الذين سيعودون لاحقاً لمشاركة العائلة في حزنها وألمها. كانت الواحدة منهنّ تردّد كم الحياة ظالمة، وكم الله يختبرنا، وأن المؤمن مهيأ للشقاء من دون تردّد. وكانت تقول إن هذه هي إرادة القدير، وإن هذه الروح هي تجسيد لملاكٍ أراد الله استدعاءه إليه.

في هذا الوقت، فكّرت مجدداً في دفتر مذكراتي الذي لم أُعده إلى موضعه. لو كانت أمي قد وقعت عليه، لجاء ردّ فعلها رهيباً. لعلّني تركته عمداً، ما في ذلك شكّ.

أحسنوا صنعاً بترك أخي لدى جديّ. مراسم المأتم قد تكون مضنية. أذكر خالة من خالاتي المسكينات ماتت أثناء الإنجاب في مستشفى بسبب خطأ تسبب فيه طبيب التخدير. عيد المولد تحول إلى مأتم وتعاسة. كنت في السادسة، وحضرت كلّ شيء. ركبتني الكوابيس على مدى أشهر. كنت أرى أشباحاً، وأتخيّل الموت امرأة ملتفة بوشاح رمادي هائل تمر وتلتقط الناس بخطّافها من دون تمييز.

كنت أراها تطوف حول منزلنا. لم أكن أريد إيقاظ والديّ. هنا، سيقولون لآدم إن أخته ذهبت في رحلة. هذا ما يقال للأطفال الذين يظنونهم بلهاء. لم أعد طفلة. الآن أعرف كلّ شيء عن الموت، وعن الجحيم والجنة. اخترعت كلّ شيء. لم أخطئ. الموت في نظري هو هذا الكفن الهائل من الصمت الأبيض الذي تلتهمه الحشرات شيئاً فشيئاً. النفق، الضوء الخافت في نهايته، مداعبة الريح والزهور... كلّ هذا هراء. الموت لا شيء. نجتاز شاشة ونتحول صورة، ذكرى هشة من دون أهمية. إلا بالنسبة إلى أمي الذكرى ستتحول جبلاً يصعب تسلقه، ووادياً ستقع فيه غالباً، وبحراً تستسلم للموت فيه. ستكون رصيداً أيضاً. الشقاء موضّباً في علبة، مؤرشفاً، جاهزاً للعب دوره.

والدي يضع قدميه على الأرض. هو رجل عقلاني. ليس شديد الذكاء، وربما هو ساذج حتى. سيعرف كيف ينظّم هذه الذكرى المريرة. حتى لو أن روحه ستنخرها الثقوب هنا وهناك، فهو سيعرف كيف يتعامل مع الواقع. لقد رأيت كيف أنه، من رجل نزيه، توصّل إلى أن يتقبل أن يكون كالآخرين ويترك نفسه تنقاد بمرح نحو الفساد تحت تهديد أنظار زوجته الاتهامية. والدي هو هذا التناقض الرائع. ضعيف، جبان بسهولة، لكن مع ابتسامة، وحتى مع شيء من مرح. وُلد مستقيماً. والدتي هي التي حنت ظهره. لقد نجحت في إسناد ما يكفي إلى عموده الفقري كي يتخلى عن عزة نفسه من دون ضجيج، ومن دون أن يدري بذلك أحد. وها هو يتذمر ويشكو. يقول إن يأس رحيلي هو الذي دفعه إلى أن يفعل ما يفعله الناس ويستسلم للفساد. هذا ليس صحيحاً، فقد كان فاسداً منذ البداية، عن ضعف، عن جبن.

هذا كلّ شيء. توهّم أنه بإحضاره مغلفات محشوة بالمال القذر يشتري السلام للبيت. حتى هذا لم ينفع. الاحتقار. هذا هو مفتاح هذا الثنائي الذي كان بإمكانه الاكتفاء بعيش متواضع وتقبل الحياة كما هي. والدتي احتقرته. فكان ردّه، عندئذ، توسيط المغلفات. بعد ذلك، ولكي ينتقم، بدأ يتيه بين أحضان نساء متطلبات وتعِسات بقدره. ليست جميلة جداً هذه الحكاية. وأنا، الشاهدة الخفية، كنت أصمت. أنا بدوري اخترت أن أبتعد عن الواقع. قصائدي متكلفة، ومؤلمة لكنها صادرة من عمق مجروح. كنت في حاجة إلى استئصالها من هناك حيث ترقد، وفي حاجة إلى الاغتسال من هذه الكلمات التي كانت تتراكم، مشكّلة كومة من التفاهة.

الباقي وصل كما كان متوقعاً. لا أسف. لا ندم. الطعم المرّ فقط لهذا التراب الذي يملأ فمي حتى يقفل إلى الأبد أجفاني وحلقي.

وحدتي المختارة تشققت
نثر تتساقط منها
وتغطي أرض ليالي أرقي

٤٣

مراد

مكتبة
t.me/soramnqraa

حين أفكر في حياتي، يبدو لي جلياً أن وصايتك جنّبتني دوماً المغامرات التي لا فائدة منها وأعدّتني لمقابلة كائنات حيّة حقاً. لو كنت أريد أن أقيم حساب كلّ ما شممته ملء رئتيّ، فسأكتشف أني لم أشمّ حقّاً إلا ما علمتني أن أشمّ ولم أتذوق جيداً إلا ما علمتني أن أحب.

برتران دو جوفينيل Bertrand de Jouvenel،

Lettre à Colette [رسالة إلى كوليت]

دونت منذ زمن هذه العبارة في أحد دفاتري، على أمل أن أستخدمها ذات يوم كتعبير عن الحب لامرأة تكون قد أنقذت حياتي. هذه المرأة لم ألتقها قطّ. هي موجودة، لكن لديها كلّ أسباب العالم كي لا تتقاطع طريقها مع طريقي. كانت تلك هي الحقبة التي كنت أؤمن فيها بالحب كمراهق. الحب المجنون بالطبع.

ظهري استدار. جسدي اكتنز. قيل لي: هو العمر، قلت: لا، هي تفاهة حياتي التي انتهيت إلى تقبّلها والاندماج في أيامي ولياليّ. أنا واضح. لا أسرد على نفسي حكايات. صحيح أنني كنت أحلم بحياة أخرى، وبمصير آخر، لكن ضعفي الأول كان في التسويات لحلّ مشكلات فورية. ثم كان ذلك اليوم المشؤوم، يوم الأحد ذاك الذي اهتزّ فيه كلّ شيء. حفرت الفاجعة حفرتها في جسدي. أنكمش على نفسي أحياناً من أجل مقاومة الألم. ولشدة ما فعلت ذلك، لم يعد عمودي الفقري مستقيماً. فقدت كلّ شيء وسلمت بالأمر، كأنني ألتفّ على الحزن. رفضت تناول الأدوية المضادة للاكتئاب. زوجتي كانت تستهلكها. تتناول عني وعنها. استسلمت للوضع في العمل وفي بقية الوقت. فعلت ما يفعله الجميع في هذا البلد الجميل. نتدبر أمرنا. نقول: "كده حاجة" (تدبّر أمرك، تقبّل، لا تكن شديد المراقبة وخصوصاً لا تكن متشدداً). "تدبر الأمر" هذا ما جعل من المغرب بلد كل الممكنات، وكذلك بلد الكثير من الخيبات. لسنا ذوي ثقة. ولا جديين. ولا حاضرين. الأثرياء يريدون أن يكسبوا سريعاً الكثير من المال ولا يفكرون في بلادهم. الفقراء يتدبرون أمورهم وخيالهم أغنى من خيال الأثرياء.

هذا الصباح أنا في مزاج سيئ.

لست مسلماً صالحاً. كل ما عشته يدفع بي إلى الشك. مع ذلك، استيقظت اليوم وفي ذهني فكرة ثابتة هي زيارة قبر سامية، وهو ما لم أفعله منذ سنوات عدة. لديّ نفور حادّ من مقابرنا. نعامل أمواتنا باحتقار قاسٍ.

هذا الصباح سأجعل صديقنا الموريتاني يرافقني فهو يعرف جيداً مقبرة المسلمين. سأستند إلى ذراعه ونذهب سيراً على الأقدام في يوم الجمعة المشمس هذا.

المدخل قذر. الحارس قذر. كلاب تائهة وجائعة تجول في الجوار. قطط هادئة تنام في الشمس. ألمح حركة غير عادية. استطلعَ فياد الخبر من الحارس الذي لم يجبه. أسود يطرح سؤالاً من النادر أن يتلقى جواباً. فكان عليّ أن أسأل عما يحدث.

– نهدم الجزء القديم لبناء مسجد.

– ندمّر، نهدم.

– نعم، تقدم أشخاص بالتماس لبناء مسجد هنا.

نظرت إليه وشعرت كأنني تلقيت لكمة قوية في معدتي. فقد عرفت للتو أن قبر سامية يقع في هذا الجزء الذي يحفره العمال. أصبت باليأس. استندت إلى ذراع فياد وطلبت منه أن يعيدني إلى البيت.

– لا تخبر سيدتك بشيء، وإلا فجّرتْ فضيحة.

– نعم، سيدي.

– بلاد تبنى فيها مساجد أكثر من المدارس أو المستشفيات هي بلاد انتهى أمرها. لن يخرج منها شيء صالح. نستطيع الصلاة في المنزل، لا بل يمكننا الصلاة في قلوبنا. لسنا في حاجة إلى مسجد. والدتي المريضة صلّت السنوات العشر الأخيرة من عمرها جالسة. كانت شديدة الإيمان. كانت تتلو صلواتها بصمت ولا تزعج أحداً.

اليوم، أولئك الذين يؤمنون يريدون أن يعلنوا إيمانهم لكلّ الناس. يا له من خطأ! يا لها من غطرسة! مسجد سيبنى على رفات ابنتي. أعرف أن روحها في مكان آخر، لكن مع ذلك، هناك رموز، وشعائر، وقليل من الاحترام أقله!

– أنت على حق، يا سيدي. عندنا المشكلة نفسها في موريتانيا. لكن بسبب السعوديين. فقد قدّموا المال إلى المساجد والمستشفيات فقط.

– البترول! آه، شقاء هؤلاء العرب... طالما أننا لم نعثر على بترول تحت التراب المغربي.

وأنا أمشي لم أكن أكف عن التفكير في صغيرتي التي لا بدّ أن حفارة ستجمعها مرات عدة وترميها في شاحنة تلقي بهذا التراب وهذه العظام في مكبّ.

وكنت طوال الوقت أخاطب نفسي: "ما دمت أتذكرها، هذا يعني أنها حية". فجأة تغبشت ذكرياتي وتغلفت بهذا الغبار الرديء الذي تثيره الشاحنات. هنا، أكثر من أيّ وقت مضى، أدركت مدى الفراغ الهائل الذي خلّفتْه. هذا الفراغ هو في الوقت الحاضر حفرة في الأرض. كم من الأجساد تحولت غباراً! ما من أثر باق من ابنتي. ماتت للتوّ ثانية.

أفكر في الصديق غابريال. كاثوليكي محافظ ومؤمن. اتخذ الترتيبات: في حال وافته المنية في طنجة، يُحرق جسده في سبتة، المدينة المغربية التي تحتلها إسبانيا منذ خمسمئة عام. المسلمون يحرّمون حرق الجثث.

تحويل الجسم إلى رماد هو الوسيلة المثلى لتجنب أن تلتقطك حفارة بعد سنوات على دفنك.

كان يجب التفكير جدياً. فالمسلم، ولو كان ميتاً، لا ينتمي إلى نفسه. الجماعة تقرر في شأن حياته وموته. لا سبيل للفرار من هذه القبضة.

حين كنت شاباً، كنا نثير في غالبية الأحيان موضوع أستراليا مع الأصدقاء. الهجرة إلى البلد الأبعد عن المغرب. الرحيل بعيداً جداً لنسيان البلد الأم الذي ليس رؤوفاً جداً بأبنائه. لكن أينما ذهبنا، فجذورنا تتبعنا ولا تتخلى عنا أبداً. إذاً، من الأفضل نسيان أستراليا والهتاف مع الجماهير: "يحيا المغرب!"

٤٤

مليكة

حان الوقت لإعلان السلام. السلام مع زوجي، مع ابني وزوجته، مع ابني الآخر الذي يتجمد في كندا ولا يأتي أبداً لزيارتنا، وإعلان السلام مع نفسي وكذلك مع الغائبين. لا شيء أفضل من أجل ذلك من الحج إلى مكة. أحلم بذلك منذ زمن بعيد. الآن، حان وقت المصالحة مع الحياة. تعبت من رؤية العالم بالأسود.

اقترحت على زوجي أن نلجأ إلى مدّخراتنا ونحضّر أنفسنا لزيارة الأرض المقدسة.

– فكرة جيدة، لكن غاب عن بالك أنه لم يعد بإمكاني ركوب الطائرة. بإمكانك الذهاب مع ابنة أختك التي تصلي نهاراً وليلاً والتي فرضت على بناتها ارتداء الحجاب إلى درجة أنهن بدونَ قبيحات. وتنسين أنه لا يمكننا الرحيل متى نشاء. يجب الاشتراك في القرعة.

– القرعة؟ نعم، لكن هذا يمكن شراؤه. أنت تعلم ذلك جيداً.

لا أردّ على هجوماته. وفي الوقت نفسه تركه وحيداً شهراً بكامله

مسألة فيها مجازفة. هو مريض وفي حاجة إليّ. تشجيعي على الرحيل يعني أنه يريد استغلال غيابي إلى الحد الأقصى. أنا أعرفه. سيستقدم عشيقاته القديمات للترويح عن زوج تركته زوجته. سينظر إليّ على أنني امرأة غير مسؤولة، وأنانية. وهذا ما لست عليه بالطبع.

من المستحسن صرف النظر عن هذا المشروع. لكن حينئذ كيف وأين أجد السلام الذي أشعر بالحاجة إليه؟ مفاصلي تؤلمني. ساقاي منتفختان. رأسي عرضة للإصابة بالدوار. التهاب المفاصل يقتلني. ومن ثم هو، هذا الزوج الذي لم يعد رجلاً، يتعبني ويزعجني، وأرغب في ضربه. لست عنيفة، لكنني لا أتمالك نفسي أحياناً. لديه موهبة تحريك هذه النزعة من العنف لديّ. حسناً، أتوقف ولا أنسى أنّ عليّ سلوك طريق السلام. فتستريح نفسي.

البيت معتم. فقدت السجادات ألوانها. النوافذ مقفلة طوال النهار.

وماذا لو تركنا هذا البيت؟ نعرضه للبيع وننتقل إلى شقة جديدة، بيضاء بالكامل، ونظيفة تماماً، وتشرف على البحر... فهذا سيبدل الكثير من الأشياء... تبديل الديكور، فصلنا عن هذا الأثاث القديم الذي تنبعث منه رائحة العفونة... لا، هو لا يريد إطلاقاً مغادرة هذا الكهف!

أتخلى عن مشروع مكة. صحتنا لا تسمح لنا بمثل هذه الرحلة. ليست لديّ أيّ رغبة في الموت لدى السعوديين.

لديّ فكرة أخرى: ماذا لو أجرينا رحلة صغيرة إلى الأندلس، كما في بداية زواجنا. مشاهدة غرناطة وإشبيليا ونسيان مآسينا. سنستقل المركب. قبل ذلك، سأطلب إلى ابني أن يعيد طلاء المنزل،

وتبديل بعض قطع الأثاث وتثبيت نظام إنذار لتأمين سلامتنا. الأسود سيساعده.

أنا أحلم. لديّ شعور بأنّ هذا هو كل ما تبقى لي. أنا ممددة على هذا الفراش الذي اتخذ شكل جسدي المتألم. نسيت تناول الأدوية. لم أعد أذكر هل تناولتها أم لا. سألت فياد هل رآني أتناول أدويتي، أجابني بأنه لا يدري. أفقد عقلي، ولا أدري أين أنا. يجب أن أستعيد نفسي. لم تسر الأمور كما يجب. ذاكرتي بدأت تخونني. يذكرني ذلك بوالدتي وبنهاية حياتها. مع ذلك إنّ فقدان الذاكرة ليس معدياً. طلبت من فياد أن يأتيني بمرآة. أريد أن أتحقق هل أنا حقاً التي تشك. أتاني بكوب ماء. نسيت ما كنت قد طلبت منه. كلّ هذا غريب. لكن من يكون هذا العجوز المنحني على كتاب قديم؟ هذا ليس زوجي. زوجي مات منذ زمن طويل. قتلته، أو أكثر دقة، ساعدته على الموت. دفعة صغيرة. انتقام صغير. لم يشعر بشيء. رحل والبسمة على شفتيه. لم يعد ثانية. لا، هذا مستحيل. دفن بجانب ابنتنا. إذاً، من يكون هذا؟ أكلمه فلا يجيبني. لا يكاد يتحرك. هذا شبح، وهم. فياد هو هنا. هو أسود. لا يمكنني الخلط بينه وبين أحد آخر. جاءني بمرآة. لماذا تعطيني هذه المرآة؟ أنظر إلى نفسي فيها. يا للهول! إنني مرعبة، قبيحة، مريعة، مجعلكة، مجعدة، من دون أسنان، أثير الرعب. أصيح. الرجل المنحني على الكتاب القديم ينهض ويتقدم ليضع يده على خدي. غريب يلامس خدي. هذا حسن. لكن يجب أن يرحل. سيساعدني فياد على دفعه للرحيل. عليّ أن أنهض. إنني في حاجة إلى دخول المرحاض. عليّ دخول المرحاض. تأخرت.

عملتها تحتي كما الأطفال. الرائحة كريهة. هي لا تزعجني. لم أعد أتحكم في شيء، لا رأسي ولا عضلاتي. كلّ شيء يرحل. كلّ شيء ينهار ورائحتي كريهة. هل هذا هو الموت؟ كانوا قد حدثوني عن العطور، عن الزهور، عن الابتسامات، عن نور بهيّ، عن ملائكة بيضاء ترقص وتشير لك إلى باب الفردوس... هنا، الأمر مختلف. لا بدّ أنني أخطأت في المصير. الموت في وسخك، هذا مخزٍ! لا أصمد، لست جديرة. أترك نفسي تنقاد إلى نفق. أعلم أنّ سواداً سينتزع روحي ثم يرمي جسدي في حفرة. يجب الإقرار بأنّ لا إله إلا الله وبأن محمداً رسول الله. أكرر العبارة. أحد ما سدد إليّ ضربة كرباج. انتهى الأمر. غير أن المثول أمام الله الرحيم ورائحة القذارة تفوح مني ليس بالأمر الجيد. لكن لم تعد لديّ إرادة. لم أعد شيئاً. لقد فاتتني حياتي. على أيّ حال، لم يعد ثمة من يتوجه إليّ بالكلام. وجه يكسوه نمش أحمر ينحني فوقي. يقول لي شيئاً ما. يحدثني عن اللازورد والمرج وزهور الأوركيديا. ثم يختفي. الأسود بدوره اختفى. يغسلونني بالماء الحار. أسمع أصواتاً تتلو **القرآن**. لم تعد رائحتي كريهة. لا رائحة لي. أنا نظيفة، أنا شابة، أنا جاهزة للقفز فوق البحر والجبال للالتحاق بابنتي التي تحتفل بخطوبتها مع الربيع والشمس. رأسي مثقل. يلقونه ويغطونه بقماش أبيض. وضعوا في مكان كلّ عين نصف بلحة. هذا هو التقليد. عدم الخلط بين الرأس والقدمين. استسلمت لما يفعلون. لا أستطيع خلاف ذلك. هم يصلّون وأنا أبتعد. أرحل بعيداً جداً إلى حيث لا أحد يستطيع إزعاجي. لم أعد متعبة ولا مريضة. أنا وحيدة وألعب الحجلة فوق سحابة ذات بياض مبهر.

٤٥

آدم ومنصف

دفنّا والدتنا. كان خلاصاً لها ولنا. كانت غاضبة من الحياة ومصمّة أذنها عن السعادة. لم تكن قادرة على التمتع بالأشياء البسيطة والرضى بما قدمه القدر إليها. كانت ترى ظلّ الحياة في كل مكان. كجدار لا يتزعزع، أو كجبل يستحيل تسلقه.

نظرنا إلى بعضنا بعضاً وفكرنا في الأمر نفسه: الموت رتّب الأشياء جيداً. والدي كان شديد الحزن وكنا نتساءل هل هذا الرحيل سيساعده على احتمال الشيخوخة أم يوقظ لديه نوعاً من الحنين إلى فأل الشؤم.

في المساء، اجتمعنا في هذا البيت الذي لم نكن نحبه. رائحته، رطوبته، حالته المزرية... كلّ شيء كان يشعرنا بالانزعاج.

فكرة الاقتراح على والدنا الانتقال إلى الإقامة في مكان آخر فرضت نفسها بوضوح. عليه مغادرة هذا القبو وهذه الذاكرة العفنة. عليه التخلص من الأثاث العتيق، من هذا السجاد الذي أكله العث

وضاعت معالم رسومه، من كلّ هذه الأشياء التي لا فائدة منها. إقفال المنزل وعرضه للبيع. كان والدنا من رأينا. طلب منا أن نمضي الليل معه. ظِلّ والدتنا في كل مكان. لم يغمض لنا جفن. عندئذ حضّر والدي قهوة وطلب منا الاستماع إليه: "ولديّ، يجب أن أعترف لكما. إن كانت والدتكما على تلك الدرجة من التعاسة، فلأنني لم أعرف كيف أسعدها، ولأنني لم أتخذ الموقف الذي كانت تنتظره مني في مواجهة الفاجعة. في الحقيقة، كنت قد فكرت في أن أقصد شقة الخنزير وأغرس سكيناً في بطنه، وأحركها إلى أن تخمد أنفاسه. أغرتني فكرة الانتقام. كنت أريد أن أقيم العدالة بنفسي ولو كنت سأدخل السجن. لكن لم تكن لديّ الجرأة. منعتني تربيتي. نالت مني. فانهار كلّ شيء في علاقتنا انهياراً نهائياً.

فهمت لاحقاً أن آلامها الجسدية كانت إشارات عن اكتئاب نفسي خطير وعميق. لم أفهمها في الوقت المناسب. تهت في الفساد وما ينتج عنه. لست فخوراً بما فعلت. لا أطلب منكما شيئاً. أردت فقط أن أعلمكما بما جرى. أحبكما وأشكركما لأنكما اعتنيتما بي".

سيطر صمت ثقيل بعد هذا الكلام. والدنا غفا. غطيناه ونمنا بدورنا في هذا القبو الحافل بالظلال المشؤومة.

٤٦

مراد

منذ موت مليكة وأنا لا أعرف ما أفعل، ولا أين أذهب ولا ما هو مصيري. إنني أفتقدها كثيراً. أنهض ليلاً وأناديها. إنني في حاجة إلى حضورها، في حاجة إلى أن أعرف أنها هنا، رغم أنها كانت تزعجني وتثير أعصابي.

دفعني ابني إلى ترك البيت. لم أتردّد، وشكرته على هذه الخدمة الكبيرة التي أداها لي. مغادرة كهف الشقاء هذا أضحى حاجة ملحة. الجدران، السجاد، الفرش العتيقة، المقاعد، الهواء، الصور القديمة المتروكة فوق أثاث لا ينفع في شيء... كلّ ذلك كان يزعجني. السقف مغطى بالشقوق. لعلها صلوات زوجتي هي التي أحدثت فيه هذه الثقوب لشدة ما ارتطمت بصفحته الإسمنتية. كنت أعلم جيداً أن خرافاتها وصلواتها لم تكن تتجاوز هذا السقف. كان من غير المجدي ثنيها عن مخاطبة السماء كلّ الوقت، التي كانت غير مبالية دوماً. هذا المنزل يشبهنا. تمكنا من إفراغه من روحه الطيبة والسخية

لنجعل منه سجناً حيث لم يعد لشيء معنى. يقال أنّ الكلاب في نهاية المطاف تصبح شبيهة بأصحابها. نحن لم يكن لدينا كلاب، لكنّ بيتنا، الذي تحول إلى هذا القبو، كان على صورة حزننا وتعاستنا.

بعد رحيل زوجتي، بدأ كل شيء يتخذ أبعاداً مضخمة. ذكرياتي كانت في حالة يرثى لها، وكان الزمن يسكب عليها قِدراً هائلاً من التعاسة. الوحدة، ليلاً، لم تعد محتملة. رقادي كانت تتخلله استيقاظات مفاجئة ومزعجة. كانت الجدران تحاصرني، وتنحني فوق سريري، وتضغطني. كنت أشعر بصعوبة في التنفس. ذات مساء، صعدت للنوم في صالة الهررة. لم أستطع النوم. عدت إلى القبو. تناولت لبناً انقضى تاريخ صلاحيته. أصابني ألم في المعدة. حاولت تقيؤ ما تناولته. تقيأت كلّ شيء، ثم شعرت بالجوع. كان هناك قطعة خبز فاسدة. غليت حليباً وغمست فيه الخبز. هذا جيد للهررة، وليس لي. لديّ شعور بالتقهقر. كان يجب مغادرة هذا المكان وهذا الحي وحتى طنجة أيضاً. أين أذهب؟ آه، لو كان لي الخيار، ولو كانت لديّ الإمكانات لتحقيق خياري! توسكانا، قرية صغيرة هادئة. أو ساحل المالديف. نعم، الذهاب إلى نابولي، التجول في شوارعها القديمة، وتناول طبق من المعكرونة وانتظار السيارة التي ستقلني إلى أمالفي. العودة إلى أمالفي! إلى ألبرغو سانتا كاتارينا. سأحجز الغرفة رقم ٩. هناك، حيث حصلت من زمن بعيد، بعيد جداً، على منحة لزيارة إيطاليا، أحببت امرأة. أحببتها حباً جنونياً. كانت تسعدني، وتمنحني جناحين، وتمدني بالكثير من الخير فكنت أخلط بين الحلم والواقع. كان اسمها كيارا، وشعرها أسود شهيّ الرائحة، وبشرتها نقية ذات

بياض شفاف، وعيناها زرقاوان حيناً وخضراوان حيناً آخر، عينان صافيتان تجعلانني أجنح، وأسرح في حلم يقظة. كيارا! جسد رائع، ذكاء خارق، حدس صائب، حضور يملؤني. كنت أقبّل يديها كلّ صباح لشكرها على وجودها. كيارا، أمالفي، سانتا كاتارينا! موكب كامل من الصور القديمة يمرّ ويعاود المرور. كيف تمكنت هذه الصور من الوصول إليّ نهاية هذا النهار حيث البرد والحزن يخترقانني ويتسببان لي في الارتجاف؟ لست أدري. إنه سحر الذكرى. أو بكلّ بساطة عادت إليّ أحلامي القديمة. تخترع لي حكايات رائعة لتعزيني عن حياتي المملة والمريرة. كيارا! هل تراها وجدت حقاً؟

أسكن الآن شقة جميلة مشمسة. أمضي نهاري في النظر إلى البحر. أشعر أنني بحالة جيدة. لكن مليكة ليست هنا. ليست لديّ رغبة في مشاهدة نساء أخريات. فياد ينام في الغرفة المجاورة لغرفتي. هو يتهيأ لطلب فتاة للزواج تنتمي إلى عائلة كريمة. تجري أموره كما يرام. قال لي: "إنها فتاة تكبرني في السن، ليست بارعة الجمال، لكنها الوحيدة التي قبلت بي. إنها لطيفة. في إحدى المرات، سمعت والدتها تقول لها: رجل أسود أفضل من لا شيء. لم يزعجني ذلك، اعتدت سماع مثل هذا النوع من الآراء".

هو يعتني بي، ويقوم بالتسوق ويغامر بالطبخ أحياناً. ليس سيئاً، لكنني أفتقد أطباق مليكة. سألته لماذا لا يتزوج فتاة من بلاده، فأجابني أن لا رغبة لديه في العودة إلى موريتانيا. وأضاف: "الفتيات عندنا جميعهن بالغات السمنة. يقدمون إليهنّ أصنافاً من الطعام تجعلهن

بدينات. الفتيات النحيلات ليس لديهن فرصة للحصول على زوج. بالنسبة إليّ، أحب الفتيات ذوات القامة النحيفة".

غريب! لم أكن أعلم أنني سأفتقد مليكة يوماً. كنا ضحيتين وانقضضنا على بعضنا بعضاً. أشعر بالندم. لكنه لا ينفع في شيء. ربما ما كانت لتوافق أبداً على مغادرة البيت القديم، ذاك الذي لم يأتنا منه سوى سوء الحظ، كما كانت تعتقد. لا، كانت متمسكة بالبيت بطريقة غير عقلانية. أتذكر يوم طرح ابننا، للمرة الأولى، فكرة بيعه والانتقال إلى شقة أكثر ملاءمة لنا. كان ردّها الفوري: فقدان الوعي. هذا كان يفسر كلّ شيء.

عقود من الحياة المشتركة، من المناكفات والمواجهات، تركت علامتها وخلفت آثاراً طريفة. لو كان عليّ فعلها مرة أخرى، فمن الواضح أن...

هنا توقفت لحظة. هل أعاود ذلك؟ لست أدري. مع ذلك، لم نكن سعيدَين إلا مدة قصيرة. كنت ألوم نفسي في الغالب، لكن لم يكن ينفع ذلك في شيء. لم أكن زوجاً صالحاً. اندفعت في الخيانة باكراً جداً، وفي الفساد سريعاً، وكنت غير جدير في الغالب، وواضحاً دوماً. ما من شيء يمكنني الاعتزاز به. لا أدري كيف يفكر ابني فيّ. أخشى الخوض في هذا الموضوع. في الوقت نفسه، آدم مهذب، يحاذر أن يقول لي أشياء مسيئة. تربى على الطريقة التقليدية. الوالدان يُحترمان من دون طرح أسئلة. هذا مبدأ، قيمة في حدّ ذاتها.

أنظر من النافذة إلى البحر يبدل مرات عدة ألوانه في الصبيحة

نفسها. الألوان كلها تروقني. أرى عبر هذا المشهد أشياء رسمتها مخيلتي. أرى مليكة تستحم عارية وترفع قدمها على طريقة سيد تشاريس Cyd Charisse، أشهر راقصات السينما الأميركية في حقبة الخمسينيات.

أرى طيوراً تحلق فوق البحر لتلتهم أسماكاً طائرة. أرى الزبد في فم امرأة شابة مارست الجنس للتوّ. غفوت. أسند صدغي بيدي اليمنى التي تنزلق فيسقط رأسي.

أستيقظت مذعوراً. لا شيء مهم. تعب بسيط. ذكريات مملة. كلمات تنطلق. تغادرني مخلفة ثقوباً في ذاكرتي، في حياتي. نغمات موسيقية تصل إليّ. صوت بعيد يغني: "ماذا يبقى من حبنا؟" لا شيء. قلبي، عقلي نُهبا باكراً. منذ وقوع الفاجعة، لم تعد لديّ رغبة في شيء. ونفوري من الحياة غذاه سوء تفاهمي مع زوجتي. إن كنت أفتقدها اليوم، فلأن مزاجها، نوبتها العصبية، جنونها كانت ذات منفعة لي لتغذية هذه الحاجة إلى إفراغ القليل من الحقد يومياً على أحد ما قريب. ليس هذا عادلاً ولا أخلاقياً. لكن الأمر كذلك.

أتذكر فيلماً يابانياً حيث نرى رجلاً يحمل أمه فوق ظهره لتموت فوق جبل تحت شجرة حيث الطيور الجارحة تنتظر مجيئها.

صور غريبة تليها نغمات موسيقية حادّة تصل إليّ عبر البحر. لست مستعداً أن أطلب من ابني أن يحملني إلى قمة الجبل القديم. لا، أنا في أفضل حال هنا، في مواجهة البحر. أنظر إليه، وأتخيل أشياء. أرى من جديد صوراً اختفت، ولحظات من السعادة المسلوبة، ونتفاً من ذكريات سعيدة إلى حدّ ما. صورة كيارا تختلط مع صور

ممثلاتي المفضلات الراحلات منذ زمن بعيد لكنهن ما زلن يرافقنني في أحلامي. آفا غاردنر تركض تحت ضوء القمر على شاطئ عند المحيط الأطلسي، جين تيرني Gene Tierney تقرأ رواية ضخمة في قطار قبالة كورنل وايلد Cornel Wilde، ناتالي وود Natalie Wood المجنونة حباً بوورن بيتي Warren Beatty في فيلم La fièvre dans le sang [الحمّى في الدم]، فاتن حمامة في فيلم بالأسود والأبيض، سيمون سينيوريه Simone Signoret في فيلم Casque d'or [خوذة الذهب]... ليف أولمن Liv Ullmann التي هجرها زوجها في فيلم Scènes de la vie conjugale [مشاهد من الحياة الزوجية]...

تختلط هذه الصور ببعضها بعضاً وتشكل فيلماً أعود فيه طفلاً أجلس على مقعد منخفض في الشمس وأنا أتصفح عدداً قديماً من مجلة *Cinémonde*.

تتدفق الطفولة من لحظات الصمت والتأمل هذه. عارية، من دون حنان خاص. أنا أعمل في نقل الماء، وأقف في الصف أمام البركة العامة لملء دلوي. الطقس بارد. نحن في فاس منذ زمن بعيد جداً. الماء ثمين. يجب ألا تضيع علينا منه قطرة. أحمله إلى البيت، وتقدم إليّ والدتي كوباً من الحساء لأدفأ.

الصيف لا يقلّ حدّة عن الشتاء. الطقس حارّ جداً. فاس تتنفس بصعوبة. أنا أختنق. يعدنا والدي بتمضية بقية الصيف في طنجة لدى شقيقه البكر. يقول إن الهواء منعش دوماً بفضل البحرين. أحلم بذلك.

٤٧

فياد

منذ دخولي في خدمة هذه العائلة شعرت بأنني فرد من أفرادها. بتّ الآن أهتم بسيدي. ازداد تعباً أكثر فأكثر. ينام أحياناً وهو جالس. يسيل لعابه، فأمسح له فمه وذقنه. يستيقظ، ثم يقول أشياء غير مترابطة. لست أعرف كم عمره. أذكر أنه قال لي ذات مرة إنه لا يذكر تاريخ ميلاده. على بطاقة هويته تاريخ تقريبيّ. لا بد أن يكون قد تجاوز الثمانين. لكن ليس لذلك أي أهمية. هذا الرجل يتألم. لست أدري ما العمل. اتصلت بابنه. الآخر بعيد جداً. وعدني بأن يمرّ به نهاراً. انتظرته. لم يأتِ. لا بد أنه مشغول جداً، أو، كما كانت تقول سيدتي، لم يحصل على تأشيرة من زوجته. لا، لا أعتقد. هو في العمل بكلّ بساطة. رئيسه مستبدّ. يبقيه إلى جانبه حتى وقت متأخر جداً من الليل.

أعددت حساء خضار. لكن سيدي ليس جائعاً. لم يعد يقبل على الطعام. أظنه اكتفى من هذه الحياة. يسلّم نفسه للموت ببطء.

بعدها يحين موعد اغتساله. رائحته كريهة. لا بد أنه عملها تحته. هذا ما يحدث للعجائز الذين يفقدون القدرة على التحكم في أنفسهم. لا أظن أنه قادر على الانتقال إلى الحمام. أحاول رفعه. لا يكاد يتحرك. عشرة أمتار عليه اجتيازها بثقله الكامل على ذراعي. أرتدي قفازات، أدخله إلى المغطس، أخلع ثيابه وأغسله بالماء الفاتر. يحب الشعور بالماء ينساب على جسمه. من نظرته، أدرك أن عليّ زيادة تدفق الماء. يغمض عينيه ويبتسم. لا بدّ أنه مرتاح. وأنا كذلك.

أتركه تحت الماء وأبدل الشراشف التي سأسلمها غداً للمغسلة. أرتب السرير. أعود إلى الحمام. أجده نائماً. أقفل الماء. يستيقظ. يحاول أن ينهض. يواجه صعوبة. لحسن الحظ أنّ لديّ ما يكفي من القوة لإخراجه من المغطس وتدثيره برداء الحمام. وبكل هدوء، أعيده إلى سريره. يجد أن الشراشف نظيفة. ينظر إليّ ويبتسم لي. ويقول: "شكراً جزيلاً". يوافق على تناول الحساء الذي أعددته. يطلب قشة ليسهل عليه ابتلاع السائل.

ينظر إلى نفسه في مرآة صغيرة ويشير إليّ أنه يريد أن يحلق ذقنه. أعده بأنني سأفعل ذلك في الغد.

يغمض عينيه ويقول لي: "إلى الغد".

أنسحب إلى غرفتي. أعترف بأنني فخور بنفسي. لم أفكر إطلاقاً أنني كنت قادراً على أن أقوم بكلّ هذه الأشياء لشخص في نهاية حياته. أحب كثيراً هذه الغرفة الصغيرة. رأسمالي كله هنا. ادخرت بعض المال. فيها صورة خطيبتي. أخاف أن تبدل رأيها. سأتصل بها غداً.

أنا متعب لكنني راضٍ. أستغرق في النوم مباشرة تقريباً.

في اليوم التالي، حضّرت القهوة بالحليب وقطعة خبز محمص لفطور سيدي. وكما في الأفلام، قطعت زهرة من إناء على الشرفة ووضعتها في كوب.

حين دخلت إلى الغرفة، تملكني حدس قوي. سيدي ميت. مات أثناء نومه. وضعت الخوان وانحنيت فوقه. هو بارد. قرّبت المرآة الصغيرة من أنفه. توقف تنفسه. مات نظيفاً. يجب أن أبلغ ولديه.

٤٨

آدم

جرت مراسم الدفن كما يرام. وكالعادة، كان هناك العديد من المتسولين. جرى كل شيء بسرعة جداً. غاسلو الميت، قارؤو **القرآن**، تحضير الجثة، المكالمات الهاتفية لنقل الخبر إلى سائر أفراد العائلة... كلّ شيء تمّ في أقلّ من أربع ساعات. هذا هو التقليد. ما إن تغادر الروح، يجب أن يدفن الجسد مباشرة. ما من دقيقة يجب تضييعها. كأن الجسد تحوّل إلى شيء خطير يجب التخلص منه في أقرب وقت. أحد الأعمام كان يتندر عن الملائكة المكلفين استعادة الروح ونقلها إلى السماء. إذ يبدو أنهم كرجال الشرطة يحضرون دوماً اثنين، ودوماً متأخرين، كما قال. ثم ضحك. وجدت ذلك في غير موضعه، لكنه معروف في العائلة بإطلاق النكات التي نادراً ما تثير الضحك.

في المساء، اجتمعنا في الشقة. فياد اهتم بكلّ شيء. منصف وصل في ساعة متأخرة من الليل. استقلّ طائرة مونتريال الدار البيضاء، ثم

الدار البيضاء طنجة. ضممته إلى صدري. كان يبكي. قدّم إليه فياد كوباً من الشاي الساخن. سردت عليه الأسابيع الأخيرة من حياة والدنا. كان متأسفاً لأنه فوّت على نفسه وداعه. قال لي: "مع رحيل والدنا، سقط السدّ الأخير. الآن فقدنا الحماية".

في اليوم التالي، ذهبنا لإفراغ الشقة وتسليم المالك مفاتيحها. كان هناك القليل من الأثاث. استقدم فياد شاحنة صغيرة لحمل كلّ شيء إلى البيت القديم الذي لا يزال معروضاً للبيع.

كان والدي قد أنشأ مكتبة صغيرة من كتب عربية وفرنسية. وكان شديد الحرص عليها. كان فيها القليل من كلّ شيء. كتب رحلات، كتب تاريخية، كتب كلاسيكية دوّن على بعضها ملاحظات. وخصوصاً كتاب **الأيام** لطه حسين و*Adolphe* [أدولف] لبنجامان كونستان Benjamin Constant. جلست ورحت أقرأ الملاحظات التي دوّنها والدي بخط يده. وهكذا عرفت أنه كان يتمنى أن يعيش في القرن الثامن عشر، ويتمنى خصوصاً لو أنه لم يتزوج. وأثناء توضيب كتبه في صندوق من الورق المقوّى استرعى انتباهي دفتر مدرسي ومفكرة حمراء مضمومان معاً. تناولت الدفتر وجلست وبدأت القراءة. شقيقتي سامية كانت قد كتبت مذكراتها وها هي الآن بين يدي. ناديت منصف وأريته إياها. كتابة ناعمة ومنتظمة. ما من تشطيب.

كانت تروي يومياتها التي تعترضها من وقت إلى آخر قصيدة. بعض تلك القصائد يصعب فهمه. كنا نلمح خصوصاً معاناتها. الصفحات الأخيرة كانت فوق طاقتي على الاحتمال. كيف أمكننا

أن نغفل عن حساسيةٍ في مثل هذه الرهافة الكبيرة. لُمت نفسي. والدي كان قد عاش مع هذه المذكرات من دون أن يتحدث عنها. ووالدتنا على الأرجح لم تكن تعرف حتى بوجودها. أخي بعدما استعرضها سريعاً قال: "كلّ هذا من الماضي! لا نستطيع أن نعيش مجدداً وإلى الأبد هذه المأساة كما عاشها والدانا. رحم الله روحها وأسكنها جنة الأبرياء".

وافقته الرأي، لكنني احتفظت بمذكرات شقيقتي. فهي بطريقة ما تروي حكاية عائلتنا. إنها شهادة، مستند ثمين. أمضيت السهرة في قراءتها. كانت عيناي أحياناً كثيرة تغرورقان بالدموع. يا له من مصير! كارثة، وهزيمة، وخصوصاً وحدة هائلة. يجب أن أعرض مذكرات شقيقتي على ناشر. حلمها كان أن تكتب وأن يقرأها الناس. نشر مذكراتها سيكون كانتقام من الخنزير. على مدى سنوات، منعنا والدانا من التلفظ باسم سامية. كان من المحرّمات. صغيران لم نكن نعرف السبب. الآن أعرفه. هذه الفاجعة دمرتهما. ماتا والغضب والعار في قلبيهما.

منصف احتفظ بالمفكرة الحمراء التي تحمل عنوان "مفكرة العار". تعرّفنا فيها إلى الكتابة المثابرة لوالدنا. أسماء وأرقام، مع التاريخ والدافع أحياناً. وهكذا: محمد فراج = ٩٠٠ درهم. محل حلويات أحمد الغزال = ١٧٠٠ درهم. كاراج فللوس = ٣٠٠٠ درهم. بيت حميدو = ٢٧٠٠ درهم. طريق رجال = ٨٠٠ درهم. شهادة عمو = ٤٠٠٠ درهم. فيلّا رحول = ٢٠٠٠ درهم. صالون التزيين ميتاوي = ٢٣٠٠ درهم. قهوة...

العار! نعم، لم يكن يأتي على ذكره، لكنه كان يحمل هذه اللطخة السوداء في أعماق ضميره، في حياته. كان يردّد غالباً أنه كان يريد أن يكون حبة الرمل التي تعرقل آلة الفساد، لكنّ الحياة قاسية والأخلاق تتحطم قطعاً في أجمل بلدٍ في العالم، كما يقولون.

الآن الشقة المقابلة للبحر فارغة. على الأرض صحف، إناء غرفة، نعال وسخة، نمل يجتمع حول فتات الخبز. يجب استقدام عاملة تنظيف لتنظيفها قدر المستطاع.

كتاب طبخ صيني موضوع فوق علبة ملأى بالكتب. وبدافع من الفضول، فتحتها فوجدت صحيفة قديمة صفراء، مطوية إلى أربع. آه، Le Journal de Tanger! [صحيفة طنجة] نشرة أسبوعية أسسها فرنسيون في الحقبة التي كانت فيها طنجة تحمل صفة المدينة الدولية.

جلست أرضاً، وأسندت ظهري إلى الحائط، قرأت هذا العنوان في الصفحة الأولى: "ناشر الشعر مختار ب. وليد مات عن عمر ٧٣ عاماً". تلى ذلك تقرير عن مراسم دفنه التي "ضمت المئات من أصدقائه والمقربين".

> مات موتاً هادئاً، أثناء نومه، هادئاً كما كانت حياته الطويلة التي كرّسها بالكامل للشعر، ولاكتشاف المواهب الشابة. كان الراحل معروفاً بسخائه وبساطته. كان يحيا حياة متواضعة منذ موت زوجته التي كانت أصغر منه بكثير والتي تعرضت لسقطة في منزلهما الريفي أودت بحياتها.

وقد حضر الجنازة ممثل عن الوالي، ومدير الشرطة، وقاضيان كانا معروفين بأنهما من أصدقائه المقربين، وعدد من التلاميذ الثانويين وبعض المدرّسين. كما كان هناك جيرانه الذين كانوا يثنون عليه: صاحب المطبعة وموظفوه، ومصوران فوتوغرافيان كانا يلتقطان صور الشعراء الذين كان ينشر قصائدهم. كما حضر الجنازة أشخاص مجهولون، ورجل ملتحٍ، بالجلابة البيضاء يقلّب حبات مسبحة بين يديه. قراء **القرآن** أمضوا أكثر من ساعتين في تلاوة آيات من الكتاب الكريم. قبل نقل الجثة، قرأ شاب قصيدة من بين آخر ما نظم، مستوحاة من أبي نواس ونزار قباني، مزيج بين القديم والحديث حرّك مشاعر الحاضرين فاغرورقت عيونهم بالدمع. كان يحتفي بجمال الشباب، برهافته وبحاجته إلى الحرية. قبل صلاة الموتى، ألقى إمام خطاباً قصيراً أكد فيه أن "أبواب الجنة ستفتح له على مصراعيها!" "رجل بطيبة استثنائية، ومؤمن رصين وحريص على الإيمان الذي يعيده اليوم إلى الله، الكليّ القدرة! إنا لله، وإنا إليه راجعون! ليغمره بواسع رحمته ويؤمن له السلام الذي حلم به دوماً".

دراجان من الشرطة الوطنية توليا تسهيل مرور موكبه المهيب. دُفن في مقبرة المجاهدين. بعض التلاميذ قرؤوا صفحات من **القرآن** في الوقت الذي كان الحفارون يستعجلون ملء الحفرة بالتراب. دفن آخر كان ينتظرهم

عند مدخل المقبرة.

وهكذا حظي هذا المناضل في سبيل الثقافة، هذا العاشق للشعر، هذا الرجل الأنيق والمتواضع، بجنازة لائقة. الأشخاص الذين كانوا يواكبون الجنازة كانوا يتبادلون التعازي مرددين: "تعازينا مشتركة". مشاعر عميقة تجلت هذا الصباح، في هذه المقبرة التي كان يقصدها كل جمعة ليزور قبر زوجته المسكينة التي ماتت في ريعان شبابها.

هيئة تحرير مجلتنا تتقدم إلى عائلته وجميع أصدقائه بأصدق تعازيها. إنا لله وإنا إليه راجعون.

استغرقت في ذهولي وقتاً طويلاً، صامتاً عاجزاً عن التفوه بكلمة.

انتقلنا مع فياد إلى المنزل الوالدي. البسط عفنة تآكلها العث، الفرش في حالة يرثى لها. كلّ ما فيه شاهد على الانحلال الهائل والبطيء لعائلة ضربها الشقاء باكراً. لا شيء لإنقاذه. ربما بضع صور من زمن بعيد يظهر فيها والدانا زوجين شابين يبتسمان للحياة. يساورني إحساس بأنّ هذا الزمن غير حقيقي، وبأنه لم يكن يوماً. بالتعاون مع منصف، كلفنا فياد إفراغ المنزل وتولي دور الوسيط مع الوكيل العقاري الذي سيتكفل البيع. لم نكن نريد أن يخرج خالي الوفاض، ومن دون عمل. لقد اعتنى بوالدنا حتى النهاية ونحن لن ننساه.

٤٩

فياد

أنام في البيت القديم. نومي متقطّع تنغّصه المآسي الكثيرة والشقاء. كلفني آدم إفراغه وترتيب الزيارات مع الوكيل العقاري. يمكنني في الانتظار أن أعيش فيه. أتولى الحراسة. اشتريت صفارة وهراوة. وبما أنّ الوقت صيف، تدبرت النوم في البستان الصغير المحيط بالمنزل. مهاجر قادم من بروكسل تقدم بعرض. لم يكن سخياً لكن من الأفضل بيعه قبل الشتاء. قبِل آدم ومنصف العرض.

اتصلت بخطيبتي التي تعمل في مكتب محاماة. دعتني لتناول الكسكس لدى والديها هذا الجمعة. سأرتدي جلابة بيضاء وسأحضر الفاكهة الغريبة لوالدتها.

بعد الغداء، سأصطحبها لمشاهدة البحر. آمل ألّا يمانع والداها. قالت لي والدتها إن النساء في الحمام كنّ يوجهن إليها تعليقات مؤذية. المدلكة هي الأسوأ بينهن رغم أنها سوداء. هذا غريب. استغرقت عمري كله في التفكير في العنصريين، ولن أفهمهم أبداً.

وجدت عملاً أباشره في سبتمبر. مسألة منزل أيضاً. زوجان إنكليزيان يطلبان مني الاهتمام بمنزلهما في الجبل القديم أثناء غيابهما. عليّ ريّ النبتات، وجزّ أعشاب البستان، وتنظيف الغبار، وتشغيل التدفئة شتاء، قبل وصولهما، وإطعام الكلب وإخراجه في نزهة مرة في اليوم.

ستكون لي غرفة مع حمام. زرتها مع خطيبتي. أحبّتها بدورها لكنها كانت تأمل أن يكون لها يوماً بيتها الخاص. قلت لها: "سيكون لك ذلك". هي متفهمة.

ثم تمّ بيع البيت. ضرب لي آدم موعداً في Café de Paris، قبالة القنصلية الفرنسية. قدّم إليّ مغلفاً وهو يقول: "هذه عمولتك. أنت تستحقها". تردّدت، ثم تناولته. الآن يمكنني التفكير في تنظيم عرسي.

لحظة استعدادي للمغادرة مال شخص إلى أذني وأسرّ فيها: "هذا المساء، منتصف الليل أمام منارة رأس سبارطال. الوقت مثالي للعبور. خمسة آلاف أورو".

نظرت إليه وعرفت أنه الفتى الذي يعمل لدى مهرّب حقير. قلت له: "لست أنا الشخص المقصود!"

مكتبة
t.me/soramnqraa

’تراجيديا قاتمة في مدينة بيضاء‘

RFI

طنجة، مطلع القرن الحادي والعشرين.

كانت بين ضحاياه. هو منحرف يستدرج الفتيات المراهقات عبر إغرائهن بنشر قصائدهن في صحيفته. هي مراهقة في السادسة عشرة.

لم تكن سامية تكاشف والديها لكنها تدوّن كل شيء في مذكراتها التي اكتشفاها بعد انتحارها.

رحلةٌ في العوالم المغربية يصوغها بن جلّون عبر رصده تفاصيل عائلةٍ تعيش وسط تناقضات المغرب بسحره وظلمه.

الطاهر بن جلّون كاتب وروائي مغربي حائز جائزة Le prix Goncourt الفرنسية. من أكثر الكتاب الفرانكوفونيين مقروئية في العالم. من إصداراته عن دار الساقي: ’العنصرية كما أشرحها لابنتي‘، ’الإسلام كما نشرحه لأولادنا‘، ’عينان منكسرتان‘، ’أرق‘.

telegram @soramnqraa

ISBN 978-614-03-2194-6

9 786140 321946 >

CENTRE NATIONAL DU LIVRE

DAR AL-SAQI دار الساقي

www.daralsaqi.com